مختصر تاريخ الأباضية

تأليف

صاحب الفضيلة العلامة الشيخ
أبي ربيع سليمان الباروني

الطبعة الثالثة ، مزيدة ومنقحة

بسم الله الرحمن الرحيم

خطبة الكتاب

الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله . والصلاة والسلام على سيدنا محمد خير من اختاره لرسالته واجتباه . وعلى آله وصحبه وتابعيهم وكل من جاء بعده واهتدى بهداه .

أما بعد فهذا كتيب جمعت فيه ما لا بد من معرفته لكل مسلم من أقسام التاريخ الاسلامى ، ألا وهو التاريخ الإباضى . لذلك أقدمه بمقدمة لأولئك الراغبين فى الوقوف على كل ما خفى منه . والله أرجو أن يضعه من نفوسهم موضع الرضا والقبول ، ويملأ أفئدتنا وإياهم بالانصاف ومحبة الرسول ﷺ . والحمد لله رب العالمين .

مقدمة الكتاب

دعانى إلى وضع هذا المختصر من تاريخ الاباضية ، وتذييله ببيان بعض المسائل الخلافية جملة أسباب : منها أن كثيرا من الناس لايعرف عن هذا المذهب شيئا ، مع ما عليه أهله من العظمة التاريخية الخالدة . والبعض قد يعلم شيئا عنه ولكن يعده جهلا فى جملة الخوارج (الازارقة والنجدية والصفرية) المارقين عن الاسلام بغلوهم فى الدين ، وشططهم البعيد عن جادة الصواب ، كاباحتهم أموال الموحدين ودماءهم وسبى نسائهم وأطفالهم وإبطالهم الامامة العظمى ولو توفرت شروطها .

والإباضية يتبرءون من هذا كله فيوجبون الإمامة العظمى ، ويحرمون أموال الموحدين وسبى نسائهم وأطفالهم مطلقا ، وكذلك دماؤهم حرام إلا ما استثناه النبى ﷺ فى قوله « لايحل دم امرىء مسلم إلا بأحدى ثلاث : كفر بعد إيمان ، وزنا بعد إحصان ، وقتل النفس التى حرم الله إلا بالحق » . فيجب حينئذ العلم ويجب التمييز بين هؤلاء الضالين وبين الاباضية الذين هم أعدل الطوائف الاسلامية ، إذ لا إفراط فى معتقدهم ولا تفريط . وهكذا نرى البعض يعتبرهم معتزلة قدرية ، وهذا باطل أيضا لأن بين الفريقين خلافا كبيراً ، أهمه مسالة القضاء والقدر وخلق أفعال العبد ، فان الاباضية كالأشعرية فى هذا الباب لا يقولون بخلق العبد لأفعاله ، ولا هو مجبور عليها .

وإن من شىء فى الكون إلا وهو مخلوق لله ، وليس للعبد فيه إلا الكسب والاختيار . فهم ليسوا من هؤلاء ولا من المرجئة القائلين بان الانسان إذا قال لا إله إلا الله دخل الجنة ، وكفته هذه الجملة عن جميع التكاليف المفصلة فى الشريعة . وعلى ذكر المعتزلة أقص عليك حكاية غريبة سطرت فى كتاب مشهور من كتب الفقه المالكى وهو « حاشية العدوى على الخرشى صحيفة ١٧٦ من الجزء الخامس » ، وقفت عليها حال مراجعتى بعض مسائل الشهادات . بعد أن ذكر المؤلف شهادات المبتدع

كالقدرى والخارجى تقبل أو لا تقبل الخ قال : أخبرنى من يوثق به أنه مات بالسودان رجل من المعتزلة الساكنين بجزيرة جربة ، فوجدوا رأسه تحول إلى رأس حمار ، ثم تحصن بالله من غضبه ، وتعوذ به من الشيطان الرجيم . انظر بالله إلى عالم فقيه كيف تجرأ على تشويه كتابه بتسطير مثل هذه الحكاية الواهية بين دفتيه ، وقد صدقها بمجرد قول قيل له بدون أن يمحصها تمحيصا عقليا يقبله المنطق الصحيح ، وبدون أن يتنبه إلى أنه فقيه من الفقهاء الذين يجب أن لا يجهلوا أن المسخ مرفوع عن أمة محمد إكراما له ﷺ وتميزا لها عن سائر الامم . والظاهر أن الشيخ المؤلف ممن لايفرق بين المعتزلة والإباضية ، فكل من عـــدا الاشعرية هو معتزلى فى نظره ونظر فريق من العلماء الجامدين على معرفة مذهب بعينه لايعرفون سواه الا بالاسم وبالسماع . والواقع أن سكان جزيرة جربة ـ التابعة لتونس ـ أغلبهم إباضية ، ونحو الربع أو الخمس مالكية ، وهم على أفضل ما يرام من جهة حسن الجوار والاتفاق على خدمة مصالحهم المشتركة ومبادلة ما فى جزيرتهم من المنافع . وتراهم أشد الناس عطفا على بعضهم البعض فى الغربة ، وهم مشهورون بها فى سبيل الرفه والغنى

ومنها أنى أريد من كل قلبى أن يزول الخلاف من بين المسلمين بتاتا أو يتلطف ويخف ، أو يبقى ولكن لا يكون مجهولا على الأقل فيجسمه الجهل ويزيده قبحا وبشاعة . وهو كما تعلم دائما الحاجز الحصين بين الحقيقة والانسان فى كل شىء من هذه الحياة . وإنه لمن المؤلم أن أقول : انى جالست كثيرا من العلماء المشهورين والأدباء المعروفين ، وقد يصادف أن يكون موضوع حديثهم الفقه مثلا . فتراهم يتحاورون ولكن لايدور حوارهم الا حول أقوال أئمة المذاهب الاربعة . ولا يذكرون المعتزلة إلا فى أمهات علم الكلام ، ولا يجرى على السنتهم ذكر المذهب الاباضى مطلقا . وكثيرا ما أقول لهم : وعند الاباضية كذا وكذا ، الفاتا لنظرهم بلطف وأدب إلى لزوم اعتبار أقواله من الفقه الاسلامى ولو مجاملة . وقد يجاوبك أحدهم بما لا يفسر إلا بالمجاراة السطحية . ان تكرر الحال على هذا المنوال بالرغم من التعريض بنحو ما تقدم يدلنا دلالة لاتدع مجالا للشك على أن القوم لا يخلو حالهم ، إما أن يكونوا على جهل تام بهذا المذهب بحيث يجدون أنفسهم مجبورين على تجنب البحث فى أقواله أو

التقصير فيه ، والجهل عيب غير مغفور خصوصا بالنسبة للطبقة البارزة فى الامة . وإما أن يكون ذلك ناشئا عما تمركز فى نفوسهم من أنه لا يوجد للمسلمين مذهب رسمى غير المذاهب الأربعة ، وهذا ما جعلهم يقفون من غيرهم ذلك الموقف المشين ، وإن كان فيه ما يحرج خاطر جليسهم من عدم احترامهم لمذهبه وقلة الاكتراث به . ومع ما فيه فهو اعتقاد لا يقرهم عليه أى مخالف للمذاهب الأربعة . انظر إلى أى حد بلغ حال بعض المسلمين من التعصب المذهبى ، ثم انقل النظر إلى علماء الاباضية فانك تجدهم أحسن حالا من هذه الجهة ، فانهم يعتبرون أقوال مخالفيهم من أهل القبلة كل الاعتبار ، ويسوقونها فى تآليفهم ، قال الإمام السالمى رحمه الله :

وخذ بما قال أو لو الخلاف ما لم تجد فى كتب الأسلاف

وذلك فى أرجوزته الفقهية المشتملة على نحو أربعة عشر ألف بيت ، سواء ذلك فى علم الفقه أو الأصول أو الكلام . فمن يقرأ كتبهم يظهر منها عارفا بكثير مما قاله المالكية والشافعية والحنفية .

هذا ما عليه الاباضية إزاء أقوال مخالفيهم ، فاين ما ينسب اليهم من التعصب ، ومن أحق بأن ينسب اليه هذا الوصف بعد ما رأيت وسمعت . نعم ادعاء كونهم الفرقة الناجية وأن لهم أدلة تثبت ذلك هو حق . إلا أن هذا الادعاء ما من فرقة من الفرق الثلاث والسبعين الاسلامية إلا وتدعيه . والله سبحانه يفصل بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون . فلنقرأ كل ما بين الفرق الاسلامية المهمة من الفروق لتألف نفوسنا ذلك ، وتستأنس بالمرونة والتكرار بما هنا لك ، فيهون ما كان مهولا ، وربما زال واضمحل بفضل المطالعة والانصاف . فتظهر النتيجة ويصبحوا كلهم على مذهب واحد عملا واعتقادا . ولا شىء من الصعوبة فى توحيد هذه الفرق متى كان رائد الكل طلب الحقيقة ، وكان الفكر حرا مطلق العنان فى البحث عنها لا يقيده التعصب ولا يزهده فيها ظرف الزمان وظرف المكان ، ولا يسيطر على النفس إلا الوجدان وسلامة النية وطهارة القلب وحرية الضمير . فالحكمة ضالة المؤمن يلتقطها أنى وجدها لا يعنيه أى وعاء خرجت منه ، ولا أى مكان ظفر بها فيه . إذا كان هذا هو معول

عقلاء المسلمين فلست أرى بينهم وبين المطلوب إلا عملا قليلا فى تساهل يسير ، ومن الواجب حينئذ أن تقرر دراسة التاريخ الاسلامى المجهول للتلاميذ كتاريخ الإباضية مثلا وغيره فيقفون على سيرة أئمتهم العادلين المغاربة والمشارقة كوقوفهم على سيرة الخلفاء الراشدين والملوك الامويين والعباسيين ومن بعدهم كالسلاجقة والايوبيين والفاطميين والعثمانيين وغـــيرهم من ملوك الاندلس والمغرب والمشرق ، فينشأ التلميذ ملما بجوانب التاريخ الاسلامى ، عالما بسير الملوك العادلين والجائرين ، فيقدر بفكره المستقل أولئك ، ويسر بما اتصفوا به من العدل والاحسان ، ويجهد نفسه بأن يكون عادلا فى أعماله متصفا بالفضيلة فى جميع أطوار حياته . وينقبض من هؤلاء وظلمهم ويمقت الجور ويزهد فيه ويتجنب كل نقيصة تشينه . وميزان العقل إذا أطلق من قيوده هو أعدل ميزان ، وحكمه إذا أخذ به على ضوء الايمان بالله هو أصدق حكم ، ودين الاسلام واحد وتاريخه العام هو مرآته المنطبعة فيه صوره الصحيحة ، فلمثل هذا فليدع الداعى وليعمل العامل .

ومنها أنى كنت جمعت قريبا من ثلث هذا الكتاب كرسالة ، ثم بعد وقت من ذلك رغب إلى بعض الأصدقاء أن أضع كتيبا مفيدا مختصرا فى نفس الموضوع ، فلم أر من بأس فى إجابته إلى ما رغب ، فحورت ماجمعته أولا وأضفت اليه مامست الحاجة إلى إضافته ونسقته على الأسلوب الذى ستراه ، متوخيا الاختصار التام . إذ ما من أحد إلا ويلاحظ عليـــه أنه يرغب فى أول ما يرغب معرفته منك حياتك التاريخية ومعتقداتك الدينية ، وهذا ما سيستفيده القارىء من هذا الكتاب فيما يختص بتاريخ الإباضية واعتقاداتهم . . .

هذا وإنه لمن المروءة والاعتراف بالفضل لأهله أن نختم هذه المقدمة بالتنويه بشأن كل من الأستاذ أحمد توفيق المدنى والأستاذ عثمان الكعاك والشيخ عبد الرحمن الجيلالى إذ لم يغمطوا حق الرستميين (وهم إباضية) ، بل نوهوا بشأن دولتهم بالجزائر وممتلكاتها الواسعة ، وما كانت عليه من العمران والرقى والعدل الشامل الشبيه

كل الشبه بعهد الخلفاء الراشدين ، والاول قد زاد عن ذلك فاستطرد للتعريف بالإباضية ومواطنهم أينما كانوا قديماً وحديثاً . وهو عمل يستحقون عليه الثناء الجزيل من جهتين : جهـــة انصافهم لهؤلاء الناس وما لهم فى التاريخ من ذكر وأثر ، وجهة التعريف بهم إلى الجم الغفير ممن يجهل تاريخهم النقى الناصع الذى هو جزء متمم لعقد التاريخ الاسلامى الزاهر .

وليس دونهم فى استحقاق الحمد والشكر كل من الاستاذ السيد محب الدين الخطيب والأستاذ أمين سعيد ومن على شاكلتهما من المنصفين الذين لايكتمون الحـق ولا يكابرون الوجـدان فيتعمدون هضم الحقوق وطمس الحقائق . وفق الله الجميع لخير الدنيا والدين ، إنه ولى التوفيق ، نعم المولى ونعم النصير .

مقدمة مختصر تاريخ الاباضية

للطبعة الثانيـــة

إجابة لرغبة جمع غير قليل من الفضلاء ، لم أر مانعا من الإذن بطبع (مختصر تاريخ الإباضية) للمرة الثانية ، ذلك المختصر الذى يدعو الى توحيـــد المذاهب الإسلامية وإلى دراسة تاريخ الإسلام دراسة وافية ، لـكى يعرف الدارس ما هنالك من خلافات بين أهل القبلة فيعمل الدارسون المصلحون على إزالتها أو تهوينها . وهذا ما قصدته من وضع هذا المختصر الذى لاقى استحسانا وتأييدا صادقين من المفكرين المجردين عن الغرض والعوض داخل الوطن وخارجه . وهم العاملون على توحيد المذاهب وجمع كلمة المسلمين على ما فيه صلاحهم ونجاحهم ، ليقفوا سدا منيعا ودرعا قويا أمام غارات المبشرين ، وهجمات الساسة الغربيين ، الذين يسعون السعى الخبيث فى إضعاف المسلمين ، والحيلولة بينهم وبين استعادة سالف مجدهم وغابر عزهم . ولكن الذى يوجب الأسى والأسف أن بعض الأفاضل بدل أن يحبذوه ويشجعوه ، ثاروا فى وجهه وقابلوه بغير ما يجب ، رغم إهداء مؤلفه نسخا منه لـكثيرين منهم مدفوعا بحسن الظن فى أنهم سيقدرون مجهوده ، ويفهمون مقصوده . ولـكنهم خيبوا ظنه ، وأغروا بعض البسطاء على إقامة مظاهرة ضد مؤلفه ١٩٣٩م بدعوى أنه كفر الصحابة وأحدث فتنة . . والحقيقة أن ليس بالـكتاب أى شىء من هذا القبيل يصح أن ينسب للمؤلف ، وإنما الذى ورد فيه هو رسالة من الامام عبد الله ابن إباض أرسلها كنصيحة وموعظة إلى الخليفة عبد الملك بن مروان جاء فيها ذكر أشياء صدرت عن سيدنا عثمان لم ترض جمهوراً كبيراً من الصحابة والتابعين . وقد ذكرت فى كثير من كتب التاريخ ولم يتأثر منها ابن مروان مع أنه أقرب نسبا منا جميعا إلى عثمان ، وهو من أعلم فقهاء التابعين بأحكام الاسلام . . ولم ينقل الينا أنه بطش بابن إباض على كثرة من بطش بهم مباشرة وبواسطة عماله كالحجاج وأمثاله . وقد استغرب المنصفون من قيام

تلك المظاهرة . لانها فى الواقع قامت ضد المصلحة العامة التى يرمى اليها المؤلف ، وهى جمع العقيدة الاسلامية فى مذهب واحد قولا وعملا كما هو واضح فى مقدمة الطبعة الأولى . وفضلا عن هذا فان الموعزين بها يعلمون جيدا أن هنالك أحكاما وفروضا دينية مجمعا على وجوبها تركا أو عملا تنتهك جهارا ويستخف بها علنا ولم يحركوا لأجلها ساكنا ، بينما هم قد قاموا وقعدوا لرواية تاريخية جر لذكرها سياق الحديث لا أقل ولا أكثر . وهى ليست من أركان الدين المجمع على وجوبها . ثم إن القاعدة العامة المتبعة فى حرية النشر والجهر بالعقائد فى كل زمان ومكان قد تخلف العمل بها فى خلق هذه المظاهرة تخلفا مخجلا ، ونسى القائمون بها أن هناك أيضا أصلا معمولا به عند الفقهاء وهو أنه لايعترض بمذهب على مذهب . وهـذا نقوله لهم فى صورة ما إذا ألبسنا هذه الناحية التاريخية لباس عقيدة مذهبية . أما الواقع فليس كذلك ، ولا أجد ما أقوله هنا للتسلى غير قول الشاعر :

أسير على نهج يرى الناس غيره لـكل امرىء فيما يحاول مذهب

وياليتهم عملوا بمـا يرمى اليه شاعرنا هذا ، إذاً لسلموا من نقد الناقدين فى هـذا الموضوع وفى غيره . وعلى كل حال فـكلنا بشر والبشر يخطىء فى أعماله ويصيب ، والعصمة لمن خصهم الله بالعصمة .

قد كان أملى أن يعاد طبع هذا المختصر فى حجم أكبر وفى ملاحظات وأبحاث أوسع ، ولـكن ظروفى الخاصة وأحوالى المرتبكة بمعاكسات الزمان وصرفه لم تسمح لى بشىء من ذلك ، كما أنها لم تسمح لى بوضع يوميات أو حوليات عن مجريات حياتى منذ أيام دراستى ، أو على الأقل من أول عام ابتليت فيه بالقضاء وهو ١٩١٩ م إلى عامنا الحالى ، ولـكن الامر الواقع هو ما يحمله المثل السائر « أنا أريد وأنت تريد ، والله يفعل مايريد » . وان الانسان فى حياته الدنيا مسير غير مخير ، وكم من إنسان فى نفسه أشياء هامة يود أن يجهر بها ويخلد تدوينها وهو حى ، فتمنعه الموانع وتعوقه العوائق فيموت وتقبر معه أو تنشر بعده . فيحرم من مشاهدة ماكان لها من الأثر فى المجتمع . . . هذا ولو كنت من الذين يحفلون بتقاريظ مؤلفاتهم لقبلت عشرات منها

من مختلف طبقات الشمال الافريقي ، وقد أعرب لي كثير من الأدباء والأحرار عن استحسانهم لهذا التاليف ، والرضا عما جاء فيه من غايات سامية تروق في أعين المصلحين الأبرار ، وتحل من أنفسهم محل تقدير وإعجاب ، كما اكدوا لي استهجانهم موقف الذين نظروه بعين السخط والاشمئزاز ، وفي مقدمة هؤلاء الفضلاء عظيم تقي نزيه هو الاستاذ الكبير الزعيم الحر السيد محي الدين القليبي رحمه الله ، فقد جاءتني منه رسالة قيمة سأكتفي بدرجها في صلب هذه المقدمة ، ليعلم الإنسان المفكر ويتعجب كيف تختلف آراء الناس وتتعارض أفهامهم في شيء واحد وموضوع واحد ، ذلك لتتجلى مشاعرهم واضحة كالشمس في قول الشاعر :

وعين الرضا عن كل عيب كليلة كما أن عين السخط تبدي المساويا

وهنا يوقن العاقل ويسلم تسليما لامراء فيه بأن رضا الناس غاية لا تدرك ، وأن القول الصدق وهو ما قيل :

وما أحد من ألسن الناس سالم ولو أنه من كل عيب مبرأ

واليك أخي نص الرسالة الآتية من هـذا الرجل الذي لم يسبق بيني وبينه أي اجتماع أو تعارف قبل ورودها :

تونس في ٢٥ رجب ١٣٦٤

سماحة الأستاذ الأكمل مصدر الكمالات والفضائل ، أبو الربيع سليمان الباروني أبقاه الله وأمتعنا بعلمه وفضله . السلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

أما بعد فقد دلنا عليك حسن الثناء ، وعظيم الامل والرجاء . أما الثناء عليك فمن ألسنة الخلق ، وألسنة الخلق أقلام الباري . وأما الرجاء فيك والأمل المعلق عليك فهما نتيجة ما تجلى في كتابك القيم ، مختصر تاريخ الإباضية ، من آراء سامية في إصلاح المجتمع الاسلامي ، والقضاء على أسباب تفككه وتحوله عن المنهج القويم . فآراء كالتي شرحتها وآمال كالتي ترمي إلى الوصول اليها تجعلنا نمد اليك من هنا يد الأخوة . ونطالبك بالنصيحة الخالصة ، ونؤمل منك التعاون معنا على التقوى والبر بجماعة المسلمين وما فيه خير الجميع والسلام عليكم ورحمه الله

من الفقير إلى الله الغني الاكرم : محي الدين القليبي

هذا ما دبجه يراع ذى التصانيف العديدة فى السياسة والاجتماع السيد محيى الدين القليبى ، الذى يعترف له كل من عرفه بالنزاهة والترفع عن الدنايا والإخلاص العميق لوطنه تونس وللعالم الاسلامى الذى مات غريبا فى سبيل خدمته ، والذى ارتفع ذكره فيه ارتفاعا لا يقل عن زملائه فى العمل ، كالامـــير العظيم عبد الكريم الخطابى ، وأصحـــاب السماحة والشهامة الحسينى والابراهيمى ، والمرحومين الثعالبى والبارونى والسنوسى . فوالله الذى يعلم السر والجهران رسالة القليبى لتعبر أصدق تعبير عما يكنه ضميرى من الخير والسعى إلى ما فيه صلاح المسلمين ، والحث على كل فضيلة ترفعهم إلى أعلى عليين . ولـكن :

يريد المرء أن يعطى مناه ويابى الله إلا ما يريد

وصدق من قال :

أرى نفسى تتوق إلى أمور ويقصر دون مبلغهن مالى

فنفسى لا تطاوعـــنى ببخل ومـالى لا يبلغنى فعـــالى

فالى الله أبتهل أن يمنح الاسلام الرفعـــة والسؤدد على أيدى مصلحين أقوياء لايخافون فى الحق لومة لائم ، ولا يخشون الفقر بانفاقهم الدائم ، ولا يهابون الموت فى سبيل إعزاز الدين ، وحفظ كيان الوطن وجمع كلمة المسلمين ، ليحيوا حياة طيبة سعيدة يسودها الهناء والوفاق ، حياة سالمة من الفقر والجهل والشقاق ، إنه على جمعهم إذا يشاء قدير . وصلّ اللهم وسلم على سيدنا محمد البشير النذير السراج المنير قائد البشر إلى ما فيه السعادة والخير .

الرسول الاعظم محمد

صلى الله عليـــه وسلم

ولد نبى الله ورسوله إلى جميع خلقه سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام سنة ٥٧١م حسبما حققه العالم الفلكى محمود باشا المصرى من أبوين كريمين كل منهما قرشى النسب الام آمنة بنت وهب من زهرة بن كلاب والاب (عبد الله بن عبد المطلب) من بيت هاشم بن عبد مناف أشرف بيت فى العرب وفى قريش . ونشأ عليه السلام تحت كفالة جده نشأة صالحة لم يعهد فى الناشئين مثلها ـ الهاما من الله وتوفيقا وارهاصا لنبوته ـ وعاش يتيم الابوين ، ولما بلغ من العمر خمسا وعشرين تزوج بالسيدة خديجة بنت خويلد القرشية وكان عمرها اذ ذاك اربعين سنة فبقى معاشرا لها أحسن عشرة لم يتزوج غيرها قط إلى أن ماتت رضى الله عنها بعد خمس وعشرين سنة من بنائه بها كانت فيها مثالا أعلى للوفاء ومكارم الاخلاق ، والقيام بجميع الحقوق الزوجية ومتعلقاتها . فتأمل كيف أنه عليه السلام لم تطمح نفسه إلى غيرها من النساء الشابات الجميلات وهو فى تلك السن التى فيها دم الشباب يفور ويثور ومن شأنه أن يحمل أولى القوة والجمال إلى الرغبة فيهن . ومن هنا تعلم أن زواجه بغيرها بعد ذلك لم يكن الا لحكم هامة عامة تصدى لبيانها وعلة مشروعيتها جماعة من كبار المحققين فى هذا العصر ، دفعا لشبهات طالما يذكرها المستشرقون وبعض النقـــاد المضللين . وقد أعلن رسالته على رأس الأربعين ولم يذكره من العرب قبل ذلك احد بسوء ولا كانوا ينظرون اليه إلا بعين الاجلال والاكبار نظرا لما اتصف به من الصفات الحميدة والفضائل الجمة وفى طليعتها الصدق والامانة اللتان يشاهد الناس آثارهما فى جميع أقواله وأعماله حتى سموه الامين وأصبح به يدعى من بينهم . ولما صدع بأمر ربه وقام يدعو الى الله وتوحيده ويتلو عليهم ما نزل عليه من القرآن تلك المعجزة الخالدة التى بهت أمام بلاغتها أولئك البلغاء

المطبوعون وعجزوا عن ان يأتوا بسورة من مثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا ، عند ذلك كذبوه ونعتوه بالسحر والجنون وبالغوا فى الاذى إلى حد لا يقوى على تحمله من لم يكن مؤيدا بقوة روحية فوق تصورات البشر . ومحال أن يصبر على ما صبر عليه من لم يكن ملحوظا بعناية الله محفوفا برعايته محوطا بسياج من قوة قدرته . دعاهم غير مكترث بعراقيلهم المتنوعة بيقين لا عهد لهم به وثبات لامثيل له محتسبا لله ما يلاقى من العنت والتكذيب ودام على هذا المنوال أمدا غير قصير . وقليل منهم من وفقه الله فى هذه الاثناء فاسلموا على خوف عظيم مما يلحقهم من الأذى والارهاق ، فمنهم من أذن له فى الهجرة إلى الحبشة لذلك ومنهم من بقى بمكة محتسبا صابراً على مالا يطاق مضضه ولا يقوى على تحمله إلا من تمكن الايمان من قلبه واخلص النية لله وحده وهم الذين ﴿ إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم ايمانا وعلى ربهم يتوكلون ﴾ كالصديق ومن على شاكلته من المهاجرين الصابرين فى البأساء والضراء وحين الباس . ثم بعد البلاء الشديد الطويل العريض الذى لا يناسب هـذا المختصر شرحه امر ﷺ بالهجرة إلى المدينة المنورة بعد الاتفاق مع أهلها على النصر والتأييد ، فهاجر مختفيا ومعه صاحبه أبو بكر الصديق ، فوصل المدينة بعـــد أن رأى منه من مر بهم فى طريقه خوارق عجيبة . فآواه المدنيون ونصروه ووفوا بما عاهدوه عليه وجهر بالدعوة . وأمر لحمايتها باستعمال الشدة والقوة فقام بسرايا وغزوات منها : بدر . وأحد . والاحزاب . والفتح وحنين . وتبوك وغيرها . مما دعت اليه حماية الدعوة ونشر الدين وابلاغه إلى العالمين . فما انتقل عليه الصلاة والسلام إلى الرفيق الأعلى سنة ١١ هـ (سنة ٦٣٢ م) حتى لم يبق فى شبه الجزيرة معبود غير الله الواحد الأحد ، وحتى أبلغ المشرقين صدى دعوته إلى الله ودينه .

خلافة أبى بكر رضى الله عنه

ثم خلفه الصديق على الاثر بانتخاب المسلمين اياه بعد خلاف بسيط . وكان للصديق اليد الكبرى فى تثبيت الناس واقرارهم على الحـــالة الطبيعية . حال موت الرسول عليه الصلاة والسلام وذلك حين كثر بينهم القيل والقال فمن مصدق بموته

ومن مكذب ، حتى هاج الناس وماجوا من هول ما أصابهم ومن شدة الهلع الذى استولى على قلوبهم ، فما نطق أبو بكر بقول الله تعالى ﴿ وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفئن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ، ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا وسيجزى الله الشاكرين ﴾ حتى شعر الناس بروح جديدة تسربت إلى نفوسهم ، وسلوى انسابت إلى افئدتهم ، فكأنهم قبل ذلك لا يدرون انها آية تتلى من فرط ما أصابهم من الفزع والذهول . ولا غرابة فقوة ايمان أبى بكر ويقينه لا مطمع فيهما لغيره وقد قال فيه النبى عليه السلام « لو وزن ايمان أبى بكر بايمان هذه الأمة لرجحه » وفضائله كثيرة لا تحصى ، واليه وحده يرجع الفضل فى حمل الأمة على حرب المرتدين الذين حدثتهم نفوسهم بعد موت النبى ﷺ بالتملص من الأوامر الشرعية والامتناع من تنفيذها ، ولولاه لخارت قوى المسلمين وعظم خطر المرتدين والمتنبئين واشتد بلاؤهم وطمع فى المؤمنين كل طامع ، بل ربما انهار كل ماشيده الرسول عليه السلام ، فابو بكر على قصر مدته هو الذى ثبت دعائم الدولة الاسلامية ووطد أركانها نهائياً ، وما أجمل وأوقع فى النفوس خطبته رضى الله عنه التى استهل بها خلافته فكانت دستورا لعهده الميمون . واليك نصها « أيها الناس ، انى قد وليت عليكم ولست بخيركم ، فان أحسنت فاعينونى وان صدفت فقومونى . الصدق أمانة والكذب خيانة والضعيف فيكم قوى عندى حتى آخذ له حقه والقوى فيكم ضعيف حتى آخذ منه الحق إن شاء الله . لايدع أحد منكم الجهاد ، فانه لايدعه قوم إلا ضربهم الله بالذل . وأطيعونى ما أطعت الله فيكم فان عصيته فلا طاعة لى عليكم اهـ . ولما حضرته الوفاة عهد بالخلافة إلى الفاروق ، والأمة الإسلامية كلمة واحدة راضية عنه عند موته .

خلافة عمر بن الخطاب رضى الله عنه

بعهد من أبى بكر تولى عمر الفاروق خلافة المسلمين سنة ١٣ هـ (سنة ٦٢٤ م) وتسمى بامير المؤمنين ، وهو أول حامل لهذا اللقب فى الاسلام . فاقتفى أثر سلفيه بما يجب وكما يجب من عدل لا مزيد بعده لمستزيد وزهد فى الدنيا منقطع النظير وشدة

مشكورة فى الامر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وصال وجال فى حروبه الموفقة صولات زلزلت عروشا كانت تخر لعظمتها الجبابرة وتخضع لسلطان الجالسين عليها أمم تعد بالملايين ففتح بعزيمته الماضية كلا من العراق وفارس والشام وفلسطين ومصر وغيرها على يد قواده العظام أبى عبيدة بن الجراح وسعد بن أبى وقاص وخالد بن الوليد وعمرو بن العاص وغيرهم من الابطال الخالدين ، ونظم الدولة الاسلامية تنظيما لم يسبق له نظير ، وبينما الناس فى أرغد عيش وأهناه متمتعين بعدله وشفقته وعطفه إذ طعنه ـ على غير انتظار ـ أبو لؤلؤة المجوسى فيروز غلام المغيرة بن شعبة بمؤامرة الموالى الذين دوخ عمر بما لكهم بفتوحاته فمات شهيداً مبكيا عليه مأسوفا على مآثره وعلى سيرته المرضية وأيامه الزاهية البهية وذلك سنة ٢٤ هـ (سنة ٦٤٤ م) وعهد بالخلافة إلى جماعة من كبار الصحابة جعلها بينهم شورى فحكموا عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه ، وبعد اختبار وامتحان وجس لنبض الفكر العام وقع اختياره على عثمان بن عفان الاموى

خلافة عثمان بن عفان الأموى

تولى الخلافة عثمان بانتخاب الامة عن طريق عبد الرحمن بن عوف المفوض له ذلك من طرف المرشحين اليهـــا كما علمت . فسلك سبيل اسلافه ردحا من الدهر ، واتسعت فى عهده الفتوحات شرقا وغربا وشمالا ، وأحدث أول أسطول إسلامى على يد واليه على الشام معاوية بن أبى سفيان ، وقاتل هذا الاسطول وانتصر انتصارا عظيما على الاعداء . وقد قتل عام ٣٥ هـ (سنة ٦٥٥ م) وبويع بعده على بن أبى طالب

خلافة على بن ابى طالب الهاشمى

بعد موت عثمان بويع بالخلافة الامام على صهر النبى وابن عمه . وبايعه فيمن بايع طلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام . ثم نكثا ما بعنقهما من البيعة واستنفرا معهما أم المؤمنين عائشة بنت أبى بكر . فحاربهم على وقهرهم فى واقعة الجمل المشهورة . وفيها قتل طلحة والزبير وألوف من الطرفين . وأما السيدة عائشة فقد تابت من عملها

بعد ذلك وندمت أشد الندم خصوصا لما أخبروها بأنها مرت يومئذ على ماء الحوأب الذى أخبرها الرسول بأن احدى نسائه ستنبحها كلابه وهى متلبسة بمعصية . ثم وجه فكره إلى حرب معاوية بن أبى سفيان حاكم الشام فحاربه . وأشد الوقائع هولا وبلاء وقعة صفين التى مات فيها من المسلمين عشرات الألوف . وكادت الدوائر تدور على معاوية لولا دهاؤه ودهاء عمرو بن العاص مستشاره إذ دبرا ما أوقع التفرقة فى صفوف المسلمين من رفع المصاحف (إشارة إلى تحكيم المصحف الشريف) فانطلت الحيلة ونفذت المكيدة وتفرق رأى قوم على : فمن قائل ان هذه حيلة يريدون بها أن يفرقوا كلمتكم ويلقوا الفتنة بين صفوفكم فامضوا على حقكم وواصلوا القتال حتى يتم لكم النصر ، ومن هؤلاء أصحاب عبد الله بن وهب الراسبى . ومن قائل إن القوم يريدون السلم وحقن الدماء بين المسلمين إذ جعلوا كتاب الله بيننا وبينهم ، فلا بد من توقيف القتال لنقف على حقيقة الحال ونفتح باب المفاوضة معهم . فتغلب هذا الرأى وعين الطرفان حكمين أبا موسى الاشعرى عن على وعمرو بن العاص عن معاوية ، وبعد جدال عنيف ومذاكرات سرية طويلة اتفق الحكمان على عزل معاوية وعلى ورد الأمر إلى من ينتخبه المسلمون بعد . فكان باطن أبى موسى فى ذلك كظاهره . ولكن عمرا كان يظهر خلاف ما يبطن . فاعلن الأشعرى عزل على ومعاوية لانه هو القائم أولا بتقديم زميله إياه . . . وأما عمرو فلما قام اعلن موافقته أبا موسى الأشعرى فى عزله عليا وأثبت صاحبه معاوية . فكان لهذا التحكيم أثره السيء وعواقبه الوخيمة على على خاصة وجاء خير خادم لمصلحة معاوية . فخالف عليا قوم ووافقه آخرون فحارب من خالفه وندم . وحارب معاوية ولم يتوفق وأمضى بقية أيامه فى تعب وعناء وهرج ومرج إلى أن قتله عبد الرحمن بن ملجم سنة ٤٠ هـ (سنة ٦٦٠ م) وكسرى العرب معاوية بن أبى سفيان لم ير منذ التحكيم إلا مايسره من الاقبال والتوفيق فقد أخذ كثيرا من البلاد التى كانت تابعة لعلى كمصر والحرمين واليمن وغيرها شيئا بالشدة والقسوة وشيئا باللين والإحسان وأساليب السياسة . ولا تسأل عن أهل الشام أنصاره الاصليين فانهم مابرحوا طوع اشارته لا يردون له امرا ولا يسفهون له رأيا

الحسن بن على بن أبى طالب

ولما قتل ابن أبى طالب كما تقدم بايع العراقيون ابنه الحسن . فما مضى غير زمن يسير حتى سلم الأمر لمعاوية

ملك معاوية بن أبى سفيان

ولما سلم الحسن ثم مات صفا الجو لمعاوية فشمر عن الساعد مجدا فى كل ما يوطد ملكه ويدعم سلطانه . واتسعت فى عهده الفتوحات من كل جهة وتقوى الاسطول فى عهده قوة هائلة . ولما بلغ مراده وقبض على صولجان الملك بيد من حديد فكر فى أخذ البيعة بولاية العهد لابنه يزيد فتم له ذلك أيضا بلا تعب ولا كبير عناء

اليزيد بن معاوية ومعاوية بن اليزيد

ولما مات معاوية سنة ٦٠ هـ (سنة ٦٧٩ م) تولى اليزيد بعهد منه فعاث فى الارض فسادا وشرب الخمر وأتى من أنواع المنكر والمحرمات . وفى أيامه وعلى يد عامله على العراق عبيد الله بن زياد كانت واقعة كربلاء المشهورة التى قتل فيها الحسين شهيد الحق وشهيد الدفاع عن حريمه وشرفه . وفى أيامه أيضا كانت وقعة الحرة التى استبيحت فيها المدينة المنورة حرم الرسول ثلاثة أيام وانتهكت حرمة مكة المكرمة ورماها قائده بالمنجنيق ، ولما مات اليزيد سنة ٦٤ هـ (سنة ٦٨٢ م) بويع ابنه معاوية وكان رجلا تقيا من جهة وضعيف الارادة من جهة أخرى فما لبث غير ثلاثة أشهر حتى أجمع أمره على التسليم فى الملك فصعد المنبر والناس مجتمعون فقال بعد أن حمد الله واثنى عليه : أما بعد فانى قد ضعفت عن أمركم فابتغيت لكم مثل عمر بن الخطاب حين استخلفه أبو بكر فلم أجده فابتغيت ستة مثل ستة الشورى فلم أجدهم فانتم أولى بأمركم فاختاروا له من أحببتم . ثم توارى عن الانظار إلى أن مات . وبه انتهى ملك آل أبى سفيان بن حرب من بنى أمية فانتقل الملك إلى فرع آخر منه وهم آل الحكم بن أبى العاص

ملك مروان بن الحكم وبنيه

تولى مروان بن الحكم سنة ٦٤ (سنة ٦٨٢) بعد تردد وبعد أن هم بالذهاب إلى عبد الله بن الزبير ليبايعه بالخلافة وقد بايعه أهل الحرمين وكثير من الأقطار قبل ذلك أى فى أواخر أيام يزيد بن معاوية وكاد الأمر يستتم لابن الزبير لو استعمل شيئاً من الدعاية والدهاء فى السياسة فقد كان عامل دمشق الضحاك بن قيس معه أيضاً وغيره كالحصين بن نمير الذى كان محاصرا له بمكة من قبل اليزيد فقد دعاه إلى الذهاب لاخذ البيعة له من أهل الشام ومن نفس رؤساء الجيش المحاصر فابى . فكان ما أراده الله من بيعة مروان الذى هم كما قلنا بمبايعة ابن الزبير لولا قواد بنى أمية ومعارضتهم له . ومات مروان سنة ٦٥ هـ

عبد الملك بن مروان

وبعهد من أبيه تولى الملك عبد الملك بن مروان الفقيه النابغة ، فوطد بحق ملك بنى مروان ودعم قواعده وتغلب على من ناواه كما تغلب على عبد الله بن الزبير بواسطة الحجاج بن يوسف الذى ضرب مكة بالمجانيق وصلب ابن الزبير وعتا عتواً كبيراً فى العراق لما ولاه عبد الملك عليها بعد ذلك . وإلى هنا انتهى ما أردنا سرده من الحوادث التاريخية العامة إذ ليس المقصود لنا إلا شيئا واحدا هو أن نأتى بمختصر وجيز من تاريخ مذهب الاباضية غير المعروف عند فريق كبير من أهل العلم والادب فى الشرق الاسلامى مع نبذة مما بين هذا المذهب والمذاهب الأربعة من المسائل الخلافية تتميما للفائدة وتعريفا بما لا يعرفه الكثير من المتنورين منهم . وإنما لاجل الربط فقط أوردنا سلسلة مختصرة من لدن رسول الله ﷺ إلى عبد الملك بن مروان المعاصر لامام الاباضية عبد الله بن اباض المرى التميمى التابعى رضى الله عنه

ظهور المذهب الاباضى وامامه عبد الله بن اباض

ظهر المذهب الاباضى فى القرن الأول من الهجرة . فهو أقدم المذاهب الاسلامية على الاطلاق إذ أن امامه المنسوب اليه عبدالله بن اباض التميمى هو من التابعين الاولين

المعاصرين لعبد الملك بن مروان [1] موطد الملك الأموى المشهور . وكانت لذاك مع هذا مراسلات نصائح غالية لعبد الملك تحتم عليه أن يعمل باوامر الشرع فيعدل فى الحكم بين الناس ليستوجب الطاعة التى يدعوهم اليها

جوابه إلى عبد الملك

وبما انه الامام المنسوب اليه المذهب الاباضى ومن كبار التابعين المجتهدين فى صدر الإسلام وفى القرن الاول من عصوره . فلا أرى من باس فى ذكر احد اجوبته إلى عبد الملك بن مروان للوقوف على الروح الدينية السائدة ذلك العصر الفطرى المجرد من الاهواء الدنيوية فى غالب احواله . واليك نص الجواب فليتأمله القارىء :

بسم الله الرحمن الرحيم — وصلى الله على سيدنا محمد . من عبد الله بن اباض إلى عبد الملك بن مروان سلام عليك فانى احمد الله لا إله إلا هو واوصيك بتقوى الله فان العاقبة للتقوى والمرد إلى الله . واعلم انه إنما يتقبل من المتقين . اما بعد فقد جاءنى كتابك مع سنان بن عاصم وانك كتبت إلى أن أكتب اليك بكتاب فكتبت به اليك فمنه ما تعرف ومنه ما تنكر . زعمت ان ما عرفت منه ما ذكرت به من كتاب الله وحضضت عليه من طاعة الله واتباع امره وسنة نبيه . واما الذى انكرت منه فهو عند الله غير منكر . اما ما ذكرت من عثمان والذى عرضت به من شأن الأئمة فان الله ليس ينكر عليه أحد شهادته فى كتابه بما أنزل على رسوله انه من لم يحكم بما أنزل الله فاولئك هم الظالمون والكافرون والفاسقون . ثم انى لم أكن أذكر لك شيئا من شأن عثمان والأئمة إلا والله يعلمه أنه الحق وسانزع لك من ذلك البينة من كتاب الله الذى انزله على رسوله وسأكتب لك فى الذى كتبت به واخبرك من خبر عثمان والذى طعنا عليه فيه وابين شأنه . لقد كان ما ذكرت كما ذكرت من قدم فى الاسلام وعمل به ولكن الله لم يحز العباد من الفتنة . لقد بعث الله محمدا ﷺ وانزل عليه الكتاب فيه تبيان لكل شيء يحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه فاحل الله فى كتابه حلالا وحرم حراما وفرض فيه

---

(١) ولد هذا الخليفة الأموى سنة ٢٦ هـ (٦٤٦ م) وتوفى ٨٦ هـ (٧٠٥ م) وأما تاريخ معاصره الإمام ابن اباض ولادة ووفاة فلم نقف لهما على أثر .

فرائض وفصل بين قضائه وبين حدوده فقال ﴿ تلك حدود الله فلا تقربوها ﴾ وقال ﴿ومن يتعد حدود الله فاولئك هم الظالمون﴾ وقسم ربنا قسما وليس لعباده فيه الخيرة ثم امر نبيه باتباع كتابه فقال له﴿ اتبع ما يوحى اليك من ربك﴾ وقال ﴿فاذا قرأناه فاتبع قرآنه ثم ان علينا بيانه﴾ فعمل محمد ﷺ بامر ربه ومعه عثمان ومن شاء الله من اصحابه لايرون رسول الله ﷺ يتعدى حداً ولا يبدل فريضة ولا حكما ولا يستحل شيئا حرمه الله ولايحرم شيئا احله الله ولا يحكم بين الناس إلا بما انزل الله وكان يقول إنى اخاف إن عصيت ربى عذاب يوم عظيم ، فعمر ﷺ ما شاء الله تابعا لما امر الله يبلغ ما جاءه من الله والمؤمنون معه يعلمهم وينظرون إلى عمله حتى توفاه الله عليه الصلاة والسلام وهم عنه راضون فنسأل الله اتباع سبيله والعمل بسنته . ثم أورث الله عباده الكتاب الذى جاء به محمد وهداه ولا يهتدى من اهتدى الى الناس بتركه . ثم قام من بعده أبو بكر على الناس فاخذ بكتاب الله وعمل بسنة نبيه ولم يفارقه أحد من المسلمين ولم يعب عليه أحدفى حكم حكمه ولا فى قسم قسمه حتى فارق الدنيا وأهل الاسلام عنه رضوان وعليه مجتمعون . ثم قام بعده عمر فكان قويا فى الامر شديداً على أهل النفاق يهتدى بمن كان قبله من المؤمنين يحكم بكتاب الله وسنة نبيه وابتلاه الله بفتوح من الدنيا ما لم يبتل به صاحبيه وفارق الدنيا والدين ظاهر وكلمة الاسلام جامعة وشهادتهم قائمة والمؤمنون شهداء فى الارض قال الله تعالى ﴿وكذلك جعلناكم امة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا ﴾ وبعد موته اشتور المؤمنون فولوا عثمان فعمل ما شاء الله بما يعرف أهل الاسلام حتى بسطت له الدنيا وفتح له من خزائن الارض ما شاء الله . ثم احدث امورا لم يعمل بهـــا صاحباه قبله وعهد الناس بنبيهم حديث فلما رأى المؤمنون ما احدث اتوه فكلموه وذكروه بكتاب الله وسنة من كان قبله من المؤمنين فشق عليـه أن ذكروه بآيات الله وأخذهم بالجبروت وضرب منهم من شاء وسجن ونفى . وكتبت إلى يا عبد الملك طالبا ان اكتب اليك بجواب كتابك واجتهد لك فى النصيحة وإنى أبين لك ان كنت تعلم فضل ما كتبت اليك به ، وذكرتنى بالله أن أبين لك فانى قد بينت لك بجهد نفسى وأخبرتك خبر الأمة وكان حقاً على أن أنصح لك لما قد علمت ان الله يقول ﴿إن الذين يكتمون ماانزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه

للناس فى الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون إلا الذين تابوا واصلحوا وبينوا فاولئك أتوب عليهم وأنا التواب الرحيم﴾ . فان الله لم يتخذنى عبدا لاكفربه ولا أن أخادع الناس بشىء ليس فى نفسى وأخالف إلى ما انهى عنه . أدعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيه ﷺ ولتحلوا حلاله ولتحرموا حرامه ولترضوا بحكمه وتتوبوا إلى ربكم وتراجعوا كتاب الله . وأدعوكم إلى كتاب الله ليحكم بينى وبينكم فى الذى اختلفنا فيه ويحرم ماحرم الله ونقسم بما قسم الله ونحكم بما حكم الله ونبرأ ممن برأ الله ورسوله ونتولى من يتولاه الله ونطيع من أحـــل لنا طاعته فى كتابه ونعصى من أمر الله بمعصيته . فهذا الذى أدركنا عليه نبينا عليه السلام وان هذه الأمة لم تسفك دما إلا حين تركوا كتاب ربهم الذى أمرهم أن يعتصموا به وأنهم لا يزالون متفرقين مختلفين حتى يراجعوا كتاب الله وسنة نبيه ويحكموه فيما اختلفوا فيه فان الله يقول ﴿وما اختلفتم فيه من شىء فحكمه إلى الله ذلكم الله ربى عليه توكلت واليه أنيب﴾ . وأن هذا هو السبيل الواضح وهو الذى هدى الله به من كان قبلنا محمدا ﷺ والخليفتين الصالحين من بعده فلا يضل من اتبعه ولا يهتدى من تركه قال الله ﴿وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون﴾ . فاحذر أن تفرق بك السبيل عن سبيله وتزين لك الضلالة باتباعك هواك فيما جمعت اليه الرجال فانهم لن يغنوا عنك من الله شيئا إنما هى الاهواء وإنما يتبع الناس إمامين إمام هدى وإمام ضلالة . أما إمام الهدى فهو الذى يحكم بما أنزل الله ويقسم بقسمه ويتبع كتاب الله وهم الذين قال الله فيهم ﴿وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانو بآياتنا يوقنون﴾ . وهؤلاء أولياء المؤمنين الذين أمر الله بطاعتهم ونهى عن معصيتهم . وأما إمام الضلالة فهو الذى يحكم بغير ما أنزل الله ويقسم بغير ما قسم الله ويتبع هواه بغير سنة من الله فذلك كفر كما سمى الله ونهى عن طاعتهم وامر بجهادهم كما قال ولا تطع الكافرين وجاهدهم به جهادا كبيرا﴾ . فانه حق أنزلها بالحق وليس بعد الحق إلا الضلال . ولا تضربن الذكر عنك صفحا ولا تشكن فى كتاب الله ولا حول ولا قوة إلا بالله فان من لم ينفعه كتاب الله لم ينفعه غيره . كتبت إلى أن أكتب اليك بمرجوع كتابك فانى قد كتبت اليك وأنا أذكرك بالله العظيم أن تقرأ كتابى بتدبر وأنت فارغ . ثم اكتب إلى أن استطعت

بجواب كتابى انزع عليه بينة من كتاب الله أصدق به قولك ولا تعرض لى بالدنيا فانه لا رغبة لى فيها وليست من حاجتى ولكن لتكن نصيحتك لى فى الدين ولما بعد الموت فان ذلك أفضل النصيحة والله قادر أن يجمع بينى وبينك على الطاعة فانه لا خير لمن لم يكن على طاعة الله وبالله التوفيق ومنه الرضا والسلام عليك والحمد لله وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم تسليما

التعليق على الجواب

ان المتأمل فى هذه الرسالة أو الرسائل المتبـــادلة بين عبد الملك بن مروان وبين الإمام عبد الله بن اباض يتبين له جليا ما لابن مروان من الباع الطويل وبعد النظر فى سياسة الملك والمقدرة على توطيد أركانه وتشييد دعائمه ، فهو يريد فوق ذلك أن يلبس ملكه ثوبا من الخلافة الصحيحة المؤيدة بموافقة أيمة الدين وذوى الرأى النافذ فى الأمة وفى مقدمتهم الإمام ابن اباض الذى مع سلوكه الشدة معه لم ينقل الينا أن تعمد إلى البطش به وياما أكثر من بطش بهم مباشرة وبواسطة ، فالامر إذا لا يخلو اما لانه سلم بصحة نصيحة الإمام وأذعن لقوة دينه ويقينه ولكن حال دون العمل بها فساد المحيط وتمكن حب الملك ولذة السلطان من نفسه مع ما للبطانة والقرابة بحكم العادة من اليد القوية فى الحيلولة بينه وبين ما يهم به من قبول النصيحة فى الدين والرجوع إلى ما عليه السلف الصالح ، ويحتمل أن يكون ذلك للخوف من باس ابن اباض وعشيرته فيما إذا حدثته نفسه شرا . ويمكن غير ما ذكر من الاحتمالات . ومهما يكن من الأمر فالايمان الراسخ والوثوق الشديد بالله عز وجـــل والزهد الكامل فى هذه الدنيـا ونعيمها والصراحة فى الحق والإخلاص التام لدين الله كيفما كان الحال ، كل هذه المزايا تتجلى للناظر فى شخص ابن اباض من بين سطور كتابه إلى ابن مروان . فرحم الله ابن اباض ورحم الله أولئك الصالحين من عباده الذين لا تأنف نفس الواحد منهم أن يقول ما قاله الصديق « وأطيعونى ما أطعت الله فيكم فان عصيت فلا طاعة لى عليكم » أو ما قاله الفاروق « أيها الناس من رأى منكم فى اعوجاجا فليقومه »

الإمام أبو الشعثاء جابر بن زيد

من أعظم رجال المذهب الاباضى وأيمته الامام المجتهد أبو الشعثاء جابر بن زيد الازدى العمانى المولود عام ١٨ هـ (الموافق ٦٢٨ م) بقرية قريبة من مدينة نزوى عاصمة المملكة العمانية المتوفى سنة ٩٣ هـ (٧١١ م) بالبصرة . نشأ أولا بعمان ثم ارتحل إلى البصرة لاجل طلب العلم فأقام بها إلى أن مات فنسب اليها. وكان أعلم أهل زمانه وأحفظهم للحديث النبوى واتقاهم لله عز وجل . أخذ العلم عن كثير من الصحابة ومما قاله عن نفسه فى هذا المعنى تحدثا بنعمه الله عليه : أدركت سبعين رجلا من أهل بدر فحويت ماعندهم من العلم إلا البحر الزاخر يعنى سيدنا عبد الله بن عباس جد العباسيين وابن عم رسول الله ﷺ . وكما أخذ جابر عن ابن عم الرسول فكذلك أخذ عن أشهر أزواجه السيدة عائشة ابنة الصديق رضى الله عنهما . وفى التنويه بغزارة علمه قال ابن عباس اسألوا جابر بن زيد فلو سأله من بالمشرق والمغرب لوسعهم علمه . ولما مات جابر قال أنس ابن مالك خادم رسول الله مات اليوم أعلم من فى الأرض . وقال قتادة اليوم مات عالم العرب . وقال إياس بن معاوية رأيت البصرة وما فيها مفت غير جابر بن زيد ، مع كثرة من فيها يومئذ من الفقهاء الاجلاء كالحسن البصرى وسعيد بن المسيب وثابت البنانى وغيرهم . ومن المأثور أنه لما قربت وفاته تمنى رؤية الحسن البصرى فجاءه الحسن مسرعا هو وثابت فسأله جابر بقوله أخبرنى يا أبا سعيد عن حديث ترويه عن رسول الله ﷺ فى المؤمن إذا حضرته الوفاة ، قال قال رسول الله ﷺ إن المؤمن إذا حضرته الوفاة وجد على كبده بردا . فقال جابر الله أكبر انى أجد على كبدى بردا ثم قبض عليه رحمة الله ورضوانه وكان هذا الأمام أيضا كثير المناظرة للخوارج المارقين وله تأليف فى الفقه كبير يسمى ديوان جابر انتفع الناس به فى حياته وبعد مماته وكان محفوظا فى مكتبة بغداد ثم أخذ منها وأحرق أو أغرق ولنقتصر على هذه النبذة من تاريخ حياته الحافلة بجلائل الأعمال إذ التبسط فيها يستدعى التطويل

هذا ولا ندرى السبب فى عدم نسبة المذهب اليه مع أنه أفقه وأعلم أهل زمانه وقد قيل ان ابن اباض يصدر فى كل شؤونه عن فتواه ولا يبت فى أمر من الأمور إلا بمشورته ورضاه . والحديث عنه يطول جداً

الإمام أبو عبيدة مسلم بن أبي كريمة وغيره من الأئمة

مع جملة استطرادية شيقة

من أشهر أئمة المذهب هذا الإمام الجليل التابعي المشهور أبو عبيدة مسلم وهو ممن أخذ العلم عن جابر بن زيد وصحار العبدى وجعفر بن السماك من التابعين. أما الصحابة فقد أدرك جل من أخذ عنهم الإمام جابر واستقى من مناهلهم العذبة رضى الله عنهم وعنه. وقد أخذ عنه وعن ضمام بن السائب كثير من معاصريهما المشهورين أذكر منهم الأئمة الفحول سلمة بن سعد وأبا سفيان محبوب بن الرحيل وعبد الله بن يحيى طالب الحق وأبا حمزة المختار بن عوف وأبا يزيد الخوارزمى والجلندى بن مسعود وأبا الحر الحصين والخيار بن سالم والإمام الفحل الربيع بن حبيب صاحب المسند المعدود بأنه أقدم تأليف فى علم الحديث وأيوب بن وائـــل الحضرمى وغير هؤلاء كثير جدا من الأعلام المتكفل بذكر أكثرهم سير العـــلامة ضياء الدين أحمد الشماخى وفيهم من خراسان ومصر وغيرهما من الأقطار التى انتشر فيها أتباعهم ومدت رواقها دعوتهم. ولكن اليد السياسية قضت على هذه الدعوة ومحت وجودها من أغلب الأقطار الإسلامية، نظراً لشدة تمسك أهلها بقواعد الدين الصحيحة والمضى فى سبيلها بدون محاباة ولا خضوع إلى قوات المتغلبين بالرغم عن خطب ودهم المتكرر جيلا بعد جيل ومحاولة إرضائهم المرة بعد المرة ظنا من هؤلاء الملوك أن حركة أولئك المؤمنين الصادقين ربما كانت لطلب الدنيا والجاه لا للمطالبة بتطبيق أحكام الله من عدل وشورى واقامة لشعائر دينه القويم. وهو حق لله والأمة اغتصبه المتغلبون الظالمون وتصرفوا فيه تصرفا لم يراقبوا فيه إلا ما تهواه أنفسهم. ولا تطرف فى طلبهم ولا غلو مطلقاً وما دين الإسلام وأحكامه إلا وسط بين الإفراط والتفريط ولا كانت تكاليفه إلا تخفيفاً من الأثقال التى كانت تحملها أمم قبلنا حيث كان من ضمن ما يوجبه عليهم دينهم إخراج ربع المال فى الزكاة وقرض موضع النجاسة وقتل النفس فى التوبة وخمسين صلاة فى اليوم والليلة وغير ذلك مما لا يطاق حمله من الشدائد والأهوال. ولكن النفوس البشرية إذا ألفت لها الحبل على الغارب عدت كل ما خالف هواها تطرفا فى

المبدأ وغلوا فى الدين فلا يطربها إلا معان فى ملاذ هذه الفانية بجميع ما فيها من الموبقات المهلكة المكتسحة لما سيبقى فى النفوس من الدين والأخلاق لا سيما أولئك الجبابرة الذين استزلهم الشيطان ببعض ماكسبوا فعمدوا إلى حمل من يذعن اليهم من الفقهاء على تأويل كل ما يخالف أهواءهم وتهوين ما لا يقبل التأويل مما ينتهكونه من محارم الله . وقد آن لى أن أقول إن من ينعم النظر ويتعمق فى البحث ويقارن بين أصول المذاهب الإسلامية وقواعدها العامة لايلبث أن يسلم بأن هذا المذهب هو أكثر المذاهب انطباقا على الكتاب والسنة وأبعدها عن التأثر بالشخصيات فى مبادئه العامة إيمانا وعملا ويجده أيضا أطهرها من المبتدعات المنكرة مما يأتيه شيوخ الطرق الموجودة فى غيره من المذاهب والتى لا أصل لوجودها فيه من لدن امامه الأول إلى يومنا هذا

اباضية اليوم وأين يوجدون؟

إن اباضية اليوم بالجبل وزواره وجربة ليسوا كأسلافهم فى قليل ولا كثير من التطبيق العلمى لتعاليم الدين فهم الآن كسائر اتباع المذاهب الأخرى سواء بسواء لا يمتازون عنهم بشىء إلا فى النادر القليل . أما أهل ميزاب وعمان فانهم ما زالوا فى القيام بشئون الدين على ما يرضى الله ورسوله . وقد قلنا فيما تقدم إن اليد السياسية قضت على وجودهم فى أغلب الأقطار فلزم حينئذ أن نبين البقية الباقية وأين مأواها فنقول : يوجد أغلبهم فى القطر الممانى الواقع على بحر العرب وخليج فارس من شرق شبه الجزيرة العربية حيث لايقل عددهم هناك عن ثلاثة ملايين ، فهم بعمان أغلبية ساحقة ولهم بها إمام عادل يعين بالشورى ويحكم بينهم بالكتاب والسنة ، وأكثر نواحى القطر تحت حكمه العادل إلا مسقطا وبعض الجهات الساحلية فانها خاضعة لأمير يلقب بالسلطان وهو اباضى أيضا إلا أنه مشمول بالحماية البريطانية وبينه وبين الإمام اتفاقات وهو كالتابع له من الوجهة الدينية . ويوجد نحو ربع مليون من الاباضية بجزائر إفريقيا الشرقية البريطانية التى كانت ولا تزال إلى وقت غير بعيد من مستعمرات عمان ولا يزال سلطان زنجبار (قاعدة) هذه الجزر إباضيا يتولاها هو وآباؤه بالوراثة السياسية وهم وسلاطين مسقط من أسرة واحدة . ويوجد منهم بشرق إفريقيا البريطانى (الالمانى

سابقاً) عدد عديد لا ندرى بالضبط ولا بالتقريب كميته وإن كنا لا نجهل أن سكان هذا الأقليم يزيدون على العشرة ملايين . وكان حاكم عاصمته (دار السلام) فى العهد الالمانى اباضيا . وهذا يدل على كثرتهم وقوة نفوذهم هناك . على أن هذه المستعمرة الكبرى كانت أيضا من مستعمرات عمان كما سيأتى بيانه عند الكلام على انتشار المذهب بالمشرق . ويوجد منهم فى إفريقيا الشمالية بجبل نفوسة وزوارة من طرابلس وجزيرة جربة من تونس ووادى ميزاب بالجزائر ما يربو عددهم عن المائتى الف . وأخيرا بلغنا أنه توجد جمهورية صغيرة ببلاد القوقاز أهلها اباضية ولا ندرى عددهم وما كان لنا بهم من علم إلا منذ خمس سنوات أو أقل

انتشار مذهب الاباضية وتاريخ ظهوره بالمغرب

لا يوجد فى المستندات ما يدل دلالة واضحة على تاريخ انتشار هذا المذهب فى الشمال الافريقى بالضبط ، وإنما لنا أن نجزم بأنه فى عهد مروان بن محمد آخر ملوك بنى أمية كان مذهب الاباضية بطرابلس قويا منتشراً ، ومما يدل على ذلك أن الحارث وعبد الجبار زعيمى الإباضية كان قد حدث بينهما وبين عامل طراباس من قبل بنى أمية خلاف أدى إلى نشوب الحرب بين الفريقين كانت الدائرة فيها على العامل فانتزعا منه طرابلس وملكاها حينا من الدهر وحكماها بعدل ، إلى أن وجدا قتيلين وسلاح كل منهما فى الآخر ، والظاهر أن عبد الجبار هو الإمام والحارث وزيره أو قاضيه وهما أخوان لأم أو ابنا خالة وقبيلتهما هوارة . وفى رواية لغير أصحابنا أن القاتل لاولهما هو عبد الرحمن ابن حبيب عامل القيروان الاموى وذلك سنة ١٣١ هـ (٧١٨م) وقيل سنة ١٣٢ هـ ثم لم يلبث الأمر غير يسير من الزمن حتى عاد النفوذ إلى الاباضية بصورة أوسع وأقوى مما كان فى زمنهما . وذلك باستيلاء أبى الخطاب عبد الأعلى بن السمح اليمنى

امامة أبى الخطاب عبد الأعلى

فى سنة ١٤٠ هـ (٧٥٧ م) بايعه الاباضيون خارج مدينة طرابلس على أن يحكم بينهم بما أنزل الله وبسنة رسول الله ، ثم دخل المدينة بلا حرب ودانت له البلاد طائعة

مختارة لما شاع عنه وذاع من الرفق بالرعية والعدل فى الحكم بين الناس فعظم شأنه فيهم وامتد سلطانه شرقا إلى برقة وغربا إلى القيروان وجنوبا إلى فزان . وكان منصوراً فى جميع حروبه كالتى دارت رحاها لتطهير البلاد من أدران الفوضى والفساد مثل قمعه لورفجومة القبيلة الجسيمة التى أخذت القيروان من عامل الامويين وأسرف رجالها فى البلد بالظلم والقتل والسلب والنهب وانتهاك الحرمات والاعراض تحت سمع وبصر زعيمهم عاصم بن جميل وما تركوا منكرا إلا أتوه ولم يسلم من فسادهم حتى المسجد الجامع فادخلوا دوابهم فيه فلم يسع هذا الإمام العظيم إلا الإجابة لنداء أهل القيروان وإستغاثاتهم المهيجة إلى جهاد هؤلاء المفسدين فى الارض فأسرع إلى القضاء على فسادهم واراح الناس من عتوهم فاطمأنوا على أموالهم وأعراضهم وسكن روعهم ثم عين واليا عليهم عبد الرحمن بن رستم وعاد إلى طرابلس مقر إمامته وهكذا كان النصر حليفه مراراً فى حروبه على الحدود الشرقية لرد هجمات العباسيين المتكررة وقد بلغ عدد القتلى من جيوش بنى العباس فى إحدى الوقائع التى هزمهم فيها أبو الخطاب ستة عشر الفا ولم يخنه الحظ إلا فى التى مات فيها رحمه الله بتاورغا سنة ١٤٤ هـ (٧٦١ م) وعدد الموتى من رجاله اثنا عشر الفاً أو يزيدون ، وسبب الهزيمة مبسوط فى المطولات[1] .

---

(١) قد ذكروا فيما ذكروه من أسباب الهزيمة أن محمد بن العباس الاشعث قائد الحملة العباسية بعد أن هزمه أبو الخطاب تظاهر بان الهزيمة كانت ساحقة وأنه من العبث أن يعيد الكرة على أبى الخطاب وأنصاره فابتعد عن مكان الواقعة بمراحل عديدة ، وفى الوقت نفسه خلف عيونا ترعى حركات جيوش أبى الخطاب التى يقال إنها تفرقت لحصاد الزرع واستبعادا لرجوع أبى الأشعث وجنوده . وقد حذر أبو الخطاب أصحابه من سوء عاقبة التخاذل والأمن من مكر أبى الأشعث ولكنهم أبوا من قبول رأيه حرصاً على جمع حبوبهم . فصح ما تنبأ به إذ عاد حالا ابن الأشعث بجيوشه مغتنما فرصة تفرق أتباع أبى الخطاب طاويا مراحل كثيرة فى يوم أو يومين ففاجأ الخطابيين على غير استعداد منهم واشتبك معهم فى تاورغا . واقتتلوا قتالا شديداً دام أياما عديدة انتهى بهزيمة أبى الخطاب وحضور أجله وأجل اثنى عشر الفاً من أصحابه فى هذه الوقعة السيئة العواقب عليه وعلى غيره إذ انتشر الذعر فى الولايات التى يحكمها واضطرب حبل الأمن فيها جميعاً ، وواصل محمد بن الأشعث الزحف على البلاد

وعلى أثر موته فر واليه على القيروان عبد الرحمن بن رستم إلى المغرب حيث تلقاه الموافقون له بمزيد الاكرام والاجلال وبعد فترة من الوقت بايعوه بالخلافة وأسسوا مدينة تيهرت التى سار بذكرها الركبان وعدها المؤرخون من أعظم عواصم ذلك العصر وأكثرها عمرانا وأرقاها وأكثرها يسراً ورخاء وسماها الكثير منهم (عراق المغرب) والبعض (بلخ المغرب) وأطنبوا فى مدحها بما يليق بعظمتها

امامة أبى حاتم يعقوب بن حبيب

فى سنة ١٥٤ هـ (٧٧٠ م) بايعت الاباضية الإمام أبا حاتم يعقوب فشمر عن ساعد الجد وبادر إلى قمع المفسدين وإخضاع الفوضويين من البربر وساس الامة بالعدل والاحسان وملك طرابلس فى أقرب من لمح البصر ولبث فيها أشهراً ثم توجه إلى القيروان فملكها بعد جهاد طويل وأخرج منها ابن الاشعث واستعمل عليها عبد العزيز ابن السمح ومنها سار إلى الحدود الشرقية لمواجهة الجيوش العباسية ورد حملاتهم فكانت بين الفريقين حروب حامية الوطيس شديدة الوقع وبعد مد وجزر وكر وفر دارت الدائرة على أبى حاتم فاعتصم بجبال نفوسة مفلول الجيش وقبل أن يستجمع قواه ويسترد نشاطه عاجله العباسيون فالتحم معهم بقليل من بقايا جيشه قريباً من ظاهر قلعة وككلة فهزموه وقتل فيمن قتلوه ودفن بالموضع الذى لا يزال معروفا وأقيمت على قبره روضة والناس إلى اليوم يتبركون بزيارة ضريحه عليه رحمة الله . وكان ذلك

طولا وعرضاً حتى وصل العاصمة الكبرى (القيروان) فتنحى عنها عامل أبى الخطاب عبد الرحمن بن رستم عليها وعلى ماحولها إلى الحدود الطرابلسية فاراً بنفسه إلى المغرب الأوسط حيث أسس به الدولة الرستمية الاباضية واتخذ تيهرت قاعدة لها ومن بعده تولاها أبناؤه بالانتخاب الشرعى واستبحرت فى العمران والمدنية إلى حد كبير كما سيأتى الحديث عنها

ومما يذكر أن واقعة تاورغا التى انتصر فيها العباسيون كان بعض أتباعهم يفاخرون بها الخطابيين : فيقولون لهم ما تفسير (تاورغا) فيجيبونهم بأن تفسيرها « مغمداس التى قتل فيها منكم أربعة أكداس كل كدس فيه أربعة آلاف راس) والله يعلم أنها فتنة إسلامية كانت كالليل المظلم لو لم يمتحن المسلمون بامثالها لما تأخر الإسلام بعد التقدم وانحط بعد الارتقاء وأصبح بعد السيادة على العالم مقطع الاوصال محكوما لغيره ممن كانوا تحت سيطرته ولله الأمر

سنة ١٥٥ هـ (٧٧١ م) على ماقيل ، فتكون مدة إمامته سنة واحدة فقط . والظاهر أن الواقع غير هذا بل الصحيح لا بد وان تكون مدته أكثر من السنة والسنتين بكثير جداً لأن التاريخ يحدثنا أنه بقي محاصراً لمدينة القيروان وحدها نحوا من سنة أو سنتين فكيف يتصور هذا مع أن المؤرخين فضلا عن ذلك ذكروا له وقائع عديدة شرقا وغربا وشمالا كان له النصر فيها حليفا وذكروا أن عساكره كانت تعد بمئات الالوف من المشاة وعشرات الالوف من الفرسان . ولا يخفى أن حشد مثل هذه الجحافل وتحويلها ونقل معداتها من مكان إلى مكان بعيد عنه بمراحل وأسابيع ليس بالامر السهل الهين فى ذلك الوقت المفقودة فيه وسائط النقل السريعة فليتأمل

حملة العلم إلى المغرب

من السابقين إلى نشر الدعوة الاباضية سلمة بن سعد وهو الذى شوق بربر المغرب إلى شد الرحال والتوجه إلى المشرق لتلقى العلوم من الامام أبى عبيدة المتقدم الذكر ، فرحل اليه على هذه النية عاصم السدراتى وإسماعيل بن درار الغدامسى وأبو داود القبلى النفزاوى وعادوا حاملين لقب حملة العلم إلى المغرب يشاركهم فى هذا اللقب الشريف أبو الخطاب الذى تولى الإمامة على نحو ما تقدم وعبد الرحمن بن رستم الفارسى الذى صار قاضيا ثم عاملا لأبى الخطاب والذى أسس الخلافة الاباضية بتيهرت كما سيأتى شرحه هنا

وأما تراجم هؤلاء وذكر كراماتهم هم وغيرهم من فضلاء الرجال الكثيرين من أهل المذهب فليس من وظيفة هذا المختصر ، فليراجع غيره من المطولات من يهمه الوقوف عليها كسير الشماخى وسير نفوسة القديم فانه يرى ما يبهره

خلافة بنى رستم بتيهرت

الفترة التى بين فرار الإمام عبد الرحمن من القيروان سنة موت إمامه وبين تاريخ مبايعته بالخلافة رسمياً بتيهرت هى شبيهة بغيرها من الفترات المجهولة الحوادث مثل التى بين حدوث نفس المذهب الاباضى بالمغرب وامتلاك الحارث وعبد الجبار لطرابلس ثم مبايعة أبى الخطاب بنحو تسع سنين ومن بعده مبايعة أبى حاتم بأكثر من ذلك فالظاهر أنه لا يتسنى لاى باحث كائنا من كان ان يظفر بشىء يمكنه من العلم بما وقع فى هذه الفترات بوجه مفصل حتى يصل الحوادث بعضها ببعض لتأخذ شكلا مرتباً مضبوطا . هذا ونعود إلى تلخيص الخلافة الاباضية بتيهرت آسفين على ما فرط فيه الأوائل أو بالأحرى ما أتلفته الحوادث واستصفته الكوارث ولا حول ولا قوة الا بالله (١)

---

(١) ذكر المؤرخون أنه كان بتيهرت مركز الإمامة مكتبة كبرى تسمى (المعصومة) تحتوى على مئات الآلاف من الكتب فى مختلف العلوم أضرم فيها النار السفان الحجانى أحد قواد الدولة الفاطمية عند دخوله العاصمة الرستمية . وقد فعل هؤلاء فعلتهم هاته فى كل عاصمة احتلوها من عواصم الشمال الأفريقى . وبمدينة شروس كانت توجد مكتبة كبرى أيضاً تحمل اسم (المكتبة النفوسية) بها أيضاً عشرات الألوف من الكتب العلمية النفيسة . وقد سمعت بأذنى عند زيارتنا لآثار وأنقاض هذه المدينة من خالنا المرحوم العلامة سليمان باشا الباروني المجاهد الإسلامى الشهير بأنه يوجد فيما مضى بهذه المكتبة نحو ثلاثين الف مجلد فى فن واحد كان أحد العلماء الاعلام تفرغ لها مدة طويلة للبحث عن مسألة أشكلت عليه فظفر بها من بين صفحات بهذه الآلاف المجلدة التى طالعها كلها ولم يستفد منها جديداً سوى خمس مسائل . قال عنها إنه يمكنه أن يتعرف الحكم الشرعى فيها إجتهاداً ولو لم يجدها مدونة . وكان القضاء عليها وعلى مكتبة مدينة جادو الشهيرة على يد بنى سليم وهلال فى غاراتهم الشعواء على الشمال الافريقى باغراء وتشجيع الفاطميين انتقاما منهم من النفوسيين الذين أبوا الخضوع لسلطانهم إلى ما بعد هذه الغارة ، وانتقاما من بنى باديس أمراء تونس وموريطانيا إذ خلعوا طاعتهم واستبدلوها بطاعة العباسيين تفضيلا وايثاراً لهم على الفاطميين الشيعة

الإمام عبد الرحمن

هو عبد الرحمن بن رستم بن بهرام بن سام بن كسرى انوشروان الملك الفارسى المشهور على ما قاله غير واحد . تقدم أنه لما سمع بانكسار أبى الخطاب وموته هرب من القيروان الى المغرب ويقال إن عبد الرحمن لما خرج هاربا من القيروان لم يصحبه إلا ابنه عبد الوهاب ومملوك له وساروا فى طريقهم يتناوب الابن والعبد حمل ذات الشيخ أو متاعه إلى أن وصلوا جبلا يسمى (سوفجج) والظاهر أنه كان عامرا بالاباضية أو كانوا قريبين منه وكان جبلا منيعاً صعب المرتقى فاعتصموا به مرتقبين لحوق جيش أبى الاشعث ، فكان ما توقعوا وجاءهم بجيش كثيف طوق به الجبل من جوانبه وظل محاصراً إياهم مدة من الزمن فلم يحصل على شىء فعاد بخفى حنين بعد أن فقد مئات من رجاله بفعل الحمى وغيرها قائلا إن سوفجج لايدخله إلادارع ومدجج . ثم ان عبد الرحمن ومن التف حوله من الوجوه والاعيان قرروا الرحيل إلى المغرب الأوسط (الجزائر) حيث ألقى العصا بين جموع الاباضية من نفوسة وهوارة ومزاتة وغيرها فاختاروا لتأسيس المدينة موضعاً تكتنف أطرافه القبائل المذكورة وكان غابة تقطنها السباع والوحوش فخرجت منها بإذن الله تحمل أولادها فى أفواهها فبنوا به (تيهرت) الفيحاء دار العدل والمدنية والعلم والعمران فيما بعد [1]

مبايعة الإمام عبد الرحمن بالخلافة

فى سنة ١٦٠ هـ (الموافق لسنة ٧٧٦ م) بويع الإمام عبد الرحمن بن رستم بالخلافة فتولاها بما عهد فيه وعرف به من الهمة والنشاط والصبر على الشدائد والزهد فى الدنيا

---

(١) فى رواية تاريخية أن عبد الرحمن وأصحابه لما اعتزموا بناء مدينة تيهرت بهذا المكان المغطى بغابة كثيفة كانت مأوى للوحوش ، كلف أحدهم بأن ينادى بأعلى صوته ثلاث مرات فى ثلاثة أيام : أيتها الوحوش انا نريد أن نعمر هذا المكان فمن يريد السلامة فليخرج منه : وعلى أثر هذا النداء شاهدوا السباع والوحوش تحمل اشبالها فى أفواهها . خارجة من الغابة . قلت : قد وقع مثل هذا للصحابة والتابعين عندما أرادوا تأسيس مدينة القيروان كما هو معلوم ، ويعد هذا عند المسلمين كرامة للامة ومعجزة الرسول عليه الصلاة والسلام

والحكم بالكتاب والسنة ، فاقام الحدود وبالغ فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر كما هو شأن الأئمة العادلين أولى الاستقامة فى الدين والإخلاص للامة فانتشر عدله وعم الرعية فضله وذاع فى الآفاق صيته بما شمل المملكة من الامن والعدل ، فتوافد الناس من كل حدب وسهل إلى الاحتماء بحماه والسكنى ببلد زانه عدله وأمنه وهما ضالة كل إنسان يطلب الحياة الهنية فى هذه الدنيا . ولتأييده على إقامة العدل وتوطيد الإمامة وبث الراحة والطمأنينة أرسل اليه المشارقة اعانتين من وافر أموالهم كل منهما فى وقت غير الآخر مع رسل أمناء لابلاغهما وللوقوف على الحالة التى عليها الإمام من حيث العدل والأمن والدين والاستقامة ، فاما الأولى فقبلها لان الدولة لم تزل فى دور التكوين والضعف فهى فى حاجة ماسة إلى ما يأخذ بناصرها ويقوى دعائمها ، والمال قوام الأعمال . ولا حاجة إلى التنبيه بأن قبول الإعانة إنما كان بعد استشارة الإمام لذوى الرأى من رجاله لأن هذه القاعدة (الشورى) هى أساس الحكم وحجره الأساسى فى مذهب الاباضية ، وقد عاد الرسل وألسنتهم تلهج بالثناء على سيرة الإمام من جميع نواحيها . وأما الاعانة الثانية فلم يقبلها واعتذر للرسل الذين جاؤا بها بأنه فى غنى عنها نظراً لتوفر الدخل وكثرة الوارد على الخزينة من الأموال الناشئة عن الخصب العام واتساع رقعة العمران ونمو الخيرات . فشق على رسل الشرق أن يردوا المال بعد ما لاقوا فى سبيله من مشاق وأهوال وعبثا حاولوا إقناع الإمام بوجوب قبوله وكلما ألحوا عليه لم يجدهم ذلك لأنه فى الواقع لم يأمر برده إلا بعد المشورة لأهل الحل والعقد[1].

---

(١) ليتهم أشاروا على الإمام بقبول الأعانة رحمة بالرسل وتخفيفاً عنهم من التعب المنهك الناشىء عن السفر الطويل الشاق الممل كما هو واضح ، وكان عليهم أن يشيروا عليه بصرف الأعانة فى مشاريع الدولة ومصالحها العامة كالجيش وإصلاح الطرق والمرافق الاجتماعية والملاجىء والمستشفيات وغيرها ، فابقاء الإعانة لهذه الأغراض النافعة أحق وأجدر من ردها إلى أهلها لما تقدم ولما فى الرد من الأخطار المعترضة لحاملها فى طريق عودتهم بها ، فكأن الإمام وبطانته لم يفكروا فى هذه الناحية ، م ترى أنهم فكروا فيها وقطعوا بأن الأمن مستتب لا خوف على الرسل وأموالهم من قطاع الطرق المحتمل وجودهم فى كل مكان من الأرض مهما كان النظام فيها دقيقا ، وعلى كل حال فان الراجح أن أمر الإمام بأعادة الاعانة إلى مرسليها مبنى على جزمه باستغناء بيت المال عنها وبوثوقه بامن الطريق وسلامته وحولها اليهم وهذا عينه يعطينا فكرة واضحه عن رقى المجتمع الإسلامى وتوطد النظام فى حكومات ذلك العصر السعيد مما لم يصل إلى بعضه عصرنا هذا

واستمر رحمه الله على ما عليه من زهد فى الدنيا وتواضع لله ، سالكا مسلك الخلفاء الراشدين الذين سبقوه فى إمارة المؤمنين سواء بالمشرق أم بالمغرب رحمهم الله إلى أن وافاه الأجل المحتوم والناس عنه راضون وعلى امامته متفقون ، وكان ذلك سنة ١٧١ هـ (٧٨٧ م)

خلافة الامام عبد الوهاب بن عبد الرحمن

تولى عبد الوهاب الخلافة على أثر وفاة والده العظيم بالاجماع أو بالأكثرية الساحقة ، وقد رشح أبوه رحمه الله سبعة رجال من مشاهير القوم وخيارهم وجعلها شورى بينهم ومنهم هذا الإمام ومسعود الاندلسى ويزيد بن فندين اليفرنى وكان هذان المرشحان فى مقدمة المبايعين له إلا أن كلا منهما لصاحبه على طرفى نقيض فى سلوكه . وذلك لأن مسعوداً أظهر الوفاء والولاء للامام عبد الوهاب ما لا مزيد عليه لمستزيد مع أن العامة كانت تؤثره حتى على عبد الوهاب نفسه لولا أنه توارى عن الانظار إلى أن تحقق أنهم ولوا وجوههم عنه وهرعوا إلى مبايعة عبد الوهاب فبادر إلى تقديم البيعة له ووفى وله الفضل . أما ابن فندين فاظهر من الخلاف على الامام بعد البيعة ما به أضحى رأس الناقمين عليه والشهاب الموقد للفتنة العظيمة التى اضطر الإمام إلى قمعها بامتشاق الحسام وخوض غمار الحروب الشديدة لاجل اطفائها . ذلك لأن ابن فندين استعان على اضرامها بوسائل دينية استغفل بها فريقا كبيراً من العامة واستخفهم اليها فاصبح اطفاؤها ليس بالأمر الهين ، وما توفق الإمام إلى القضاء عليها الا بعد سفك دماء غزيرة ، وكان عدد ضحايا هذه الفتنة لايقل عن عشرين الفاً من الطرفين من بينهم رأس الفتنة يزيد بن فندين

سبب خلاف ابن فندين وموافقة شعيب

السبب الوحيد الرئيسى لفتنته وخلافه هو حب الرئاسة والتوظيف فى مناصب الدولة ، الا انه فى الظاهر جعل وسيلة أخرى لاثارة الفتنة والتلبيس على من اتبعه وهى المطالبة باقامة هيئة استشارية لايصدر الامام فى أمر من الامور الا عن رأيها ثم تدرج واستدرج من وافقه الى انكار امامة الامام عبد الوهاب من أصلها بدعوى أن فى المسلمين من هو أعلم منه فاستصوب رأيه من استصوب وسفهه الاكثرون وأدى ذلك

الى استفتاء الفريقين أحد الامامين الربيع بن حبيب أو أبي عبيدة مسلم ومن بالمشرق من أكابر الاباضية وفقهائهم ومنهم شعيب للصرى فجاء الرد بموافقة ما عليه الجمهور من تصويب الإمام وتخطئة ابن فندين وشيعته ، الا شعيباً فانه بعد أن وافق الجمهور فى صحة اما مة الامام ووجوب طاعته عاد فى رأيه ونكص على عقبيه وحدثته افكاره باغتنام فرصة الافتراق لترشيح نفسه الى مقام الامامة يقيهرت فرحل اليها مسرعا بالرغم عن نهى رجالات مصر الاباضيين ، وطوى تلك المسافات الشاسعة على ماقيل فى عشرين مرحلة مواصلا الليل بالنهار فاجتمح بالامام ثم بابن فندين وأيده فيما تمسك به وصار تابعاً له غير متبوع ، وأخيراً قضى الإمام على الفتنة وعاد شعيب الى وطنه يحمل من إثم الفتنة ووزر الطعن فى الامام العادل . وابن فندين هذا هو رأس الفرقة النكارية من الاباضية ويسمون مستاوة وقد سموا بالنكار لأنهم أنكروا امامة الامام عبد الوهاب وأكبر فقهائهم عبد الله بن يزيد ، وأما الذين ايدوا عبد الوهاب وصوبوا امامته فسموا وهبية (الصواب أن يسموا وهابية) وهم جمهور اباضية المغرب

خروج خلف بن السمح ابن الامام أبي الخطاب وسببه

وممن خالف الامام عبد الوهاب خلف بن السمح . كان والده السمح وزيراً للامام ثم والياً عاما له على جبال نفوسة وما يليها الى ضواحى طرابلس وقابس . وكان فى طاعة الامام ورضاه الى أن مات رحمه الله ، فتسارع كثير من العامة الى مبايعة ابنه خلف وأيدهم فى ذلك بعض الاعيان بنية الاستقلال عن الامامة العظمى بحجة أنهم مفصولون عنها بمخالفيهم وأنهم فى قوة تغنيهم عن التبعيه لها . وبعد أخذ الرسائل وردها بين الامام وبين وجهاء الجبل وصلحائه صمم الامام على عزل خلف وتولية غيره من أهل الفضل . فشبت بين خلف الثائر وولاة الامام حروب طويلة . وقد ثبت هو وأتباعه على عصيانهم بالرغم من تخطئة من استفتوه من أئمة المشرق فيما أتاه من مخالفة متبوعه الشرعى الامام ، وكانت الحرب سجالا بينه وبين الولاة أيوب بن العباس وأبي عبيدة عبد الحميد الجناوني الذى جدد له الولاية الامام أفلح حينما تولى الخلافة بعد أبيه والذى تمكن بعد ذلك من قهر خلف فى موقعة هى من الغرابة بمكان لأن جيش خلف يقدر

بنحو أربعين الفاً وأما جيش أبي عبيدة فلا يتجاوز عدده ٣١٣ على رواية أو سبعمائة على رواية أخرى وتاريخ الموقعة سنة ٢٢١ هـ (٨٣٥ م) ومن بعدها أخذ أمر خلف فى الضعف والادبار . ولكن القضاء على ثورته لم يتم نهائياً إلا على يد العباس بن أيوب الذى تولى حكم الجبل بعهد من الامام أفلح بعد وفاة أبي عبيدة فتعقب خلفاً وشتت شمل من بقى من أصحابه فتفرقوا أيدى سبا ومات بعد جهاد عنيف فى سبيل أمنيته وفر ابنه إلى جزيرة جربة واليه تنسب الخلفية . ومن تأمل فى أمره وأمر أتباعه يظهر له أن خلافهم كخلاف ابن فندين ليس دينيا بل هو سياسى محض لا يخرجهم عن الاباضية فى الاعتقاد شئ ، وفى زمن هذا الإمام خرجت عن طاعته الواصلية وبعض قبائل من البربر فى الولايات القريبة من تيهرت فاخضعها وعادت إلى الطاعة والانقياد وساد الأمن وعم الرخاء وعظمت الثروة إلى حد بعيد

أشهر المثرين فى زمن هذا الامام

يظهر أن الثروة بلغت شأوا بعيدا جريا على سنن تقدم البلاد فى المدنية والعمران بسبب الأمن والعدل والحرية . وللاستدلال على نموها العظيم فى الأوساط الأهلية الرستمية على عهده نذكر أن يبيب بنى زلغين المزاتى كان يملك من صنف الابل ثلاثين الفا ومن الغنم ثلثمائة الف ومن الحمير ١٢ الفا . ولا شك أن ماذكروه من هذه الاصناف هو بعض من ثروته العظيمة وقد قال الإمام فى هذا المعنى لولاى ومحمد بن جرفى ويبيب بن زلغين لخرب بيت مال المسلمين ، أنا بالذهب ومحمد بالحرث ويبيب بالانعام . وقول الإمام لخرب بيت المال ليس له مفهوم ، وإنما المراد منه امتياز هؤلاء الثلاثة بالثروة الطائلة وتفوقهم الهائل على غيرهم . ومن هذا القبيل قوله : ما أقيم هذا الدين إلا بسيوف نفوسة وأموال مزاته .

ولنقتصر من أخباره على هذا القدر . ومن أراد الوقوف على أحواله ومن اشتهر من رجال السيف والقلم والعلم والأدب فى عصره بوجه مفصل فعليه أن يطلبها من المطولات : كالأزهار ، والسير وغيرهما من كتب الموافقين والمخالفين المنصفين ، وقد توفاه الله عليه الرحمة والرضوان فى سنة ١٩٠ هـ (٨٠٥ م) وعلى أثر وفاته تولى الخلافة ابنه أفلح

خلافة الامام افلح بن عبد الوهاب

بويع بالخلافة بعد موت والده المرحوم وسار فى العدل والاحسان سيرته وعنى ببسط الأمن فى البلاد واهتم بترقيتها وسعادتها الاهتمام كله فتقدمت تقدما سريعاً وفى عهده وصلت الدولة إلى أوج عظمتها وبلغت فى السؤدد منتهى العز والترف . فقد ابتنى الاغنياء القصور الضخمة واتخـــذوا الضياع الواسعة واستكثروا من العبيد والحشم واتسع نطاق التجارة اتساعا عظيما إلى حد أن بعض التجار كان يملك سوقا قائمة بنفسها وعلى عهده كثر المسافرون إلى السودان عن طريق الصحراء للاتجار واستجلاب التبر وضربه دراهم ودنانير للتعامل واتخاذه حليا . وبقى سلطان هذا الامام ممتداً إلى حيث الحدود التى وصلته المملكة على عهد والده ولم يخالفه بتيهرت أحد فى أمر ونهى بسبب ما مهد له والده وبما أقامه هو من عدل ورأفة واجتهاد فى كل مايعود على الأمة بالسعادة والرفاهية مع ما اتصف به من أخلاق عالية وعلم واسع وصدر رحب ومحافظة على الدين والحكم بالكتاب والسنة والقيام بالامر بالمعرف والنهى عن المنكر إلى غير ذلك من الشعائر الاسلامية الواجب صيانتها . وقد استمر بالجبل خلاف ابن السمح إلى عهده ، وقد تقدم أنه قضى عليه نهائيا عامله العباس بن أيوب رحمه الله

خلاف نفات بن نصر

ان فرجا النفوسى المعروف بنفـات بن نصر قد أظهر مخالفة الامام أفلح لعين السبب الذى خالف به ابن فندين وابن السمح وهو الطمع فى الوظائف الحكومية ، وذلك أن الامام عين سعد بن أبى يونس وسليم التمزينى عاملا على قنطرارة (يتجى) وأما نفات فلم يعينه فى شىء مع أنه كان رفيقاً لسعد فى طلب العلم بتيهرت وكان يعتقد فى نفسه أنه أعلم منه وأقدر على إدارة الشؤون . فغاظه من الامام هذا التصرف وأثار فى نفسه الحقد والغيرة تفضيله سعداً عليه فانتحل مسائل لنفسه واتخذها مطية لخلافه الطائش . فمنها انكاره الخطبة فى الجمعة مدعيا انها بدعة وضلال ، ومنها انكاره استعمال الامام العمال والسعاة لجباية الحقوق الشرعية ، ومنها قوله ابن الاخ الشقيق أحق

بالميراث من الاخ للاب . ومنها قوله ان المضطر بالجوع لا يمضى بيع ماله إذا باعه لاجل ذلك وعلى من شهد مضرته تنجيته . ومنها قوله ان الفقد لا يتحقق إلا فيمن تجاوز البحر . وقد كان عالما ذكى الفؤاد إلا أن قوة الحكومة ومكانة الامام فى الامة كانتا من أعظم الاسباب فى احباط مساعيه وعدم توفقه . فلم يستطع أن يوقد نار الحرب كسلفيه يزيد وخلف . وقد تولى نفس الامام نصيحته برسائل طويلة الذيل بليغة التركيب تنطق بعلو كعب الامام فى علوم الدين والسياسة والأدب واللغة يحذره فيها من سوء العاقبة ان لم يتب من ضلاله واضلاله . وأخيراً أنذره على لسان ولاته بانزال صارم العقاب به ان لم يرتدع عن غيه . فخاف وتوقع شراً ان هو بقى على اصراره فتوجه إلى الديار الشرقية ثم قصد « بغداد » عاصمة بنى العباس فما لبث أن حظى لدى حكومتها بسبب حله معضلة استعصت على علماء بغداد وتعذر حلها عليهم وكان غزير العلم مفرط الذكاء . وبهذا أيضا تمكن من نسخ ديوان الإمام جابر بن زيد الموجود يومئذ بمكتبة بغداد باذن الخليفة العباسى (ولعله المامون) فان الامام أفلح يعاصر ستة من خلفائهم من الرشيد إلى المتوكل وقد تم له نسخ الديوان فى أيام معدودات مع أنه فى عشرة أجزاء لكن الخطب سهل فان نفاتا كان من أغنياء الناس فاستأجر عددا عديدا من حذاق الخطاطين ويقال إن الجزء العاشر لم يكتبه لان المدة المرخص له فيها قد انتهت وانما استصدر امرا آخر فى المرور عليه سردا فنقله فى رأسه حفظا وعاد إلى الجبل يحمل معه هذا الكنز الثمين إلا أن خبث نيته وسوء سريرته حملاه على دفن الكتاب واخفائه قبل أن يصل الوطن اذ علم أن الإمام لم ينقص من نفوذه شيء بل زادت دولته قوة وملكه توطدا ورسوخا . ولم يظهر لخلاف نفات أثر بعد رجوعه من الشرق وكأنه لما وجد الدولة قوية الجانب هاب الخلاف وجنح الى السكون إلى أن مات ، وقيل تاب قبل موته . واليه تنسب النفاتية يومئذ . أما الآن فلا أثر لوجودهم ولا لغيرهم من النكار والخلفية . وما أطول الكلام على شخص الامام نفسه المعدود من فحول العلماء والادباء والشعراء فضلا عن كونه ملكا هماما سياسيا ضليعا ادار الامامة بكياسة ومهارة وعدالة نصف قرن وفى رواية ستين عاما عليه رحمة الله

خلافة الامام أبي بكر بن أفلح

ولى الخلافة هذا الامام فى سنة ٢٤٠ هـ (٨٥٤ م) وهى السنة التى مات فيها والده العظيم وقد حملوه أعباء الخلافة مع قلة كفاءته لان اخاه ابا اليقظان الذى هو اقدر منه على ادارة شئونها قد توجه الى الديار المقدسة لاداء فريضة الحج فقبض عليه ولاة بنى العباس وارسلوه الى بغداد فاودعوه السجن رفقة اخ الخليفة (الرفيق هو المتوكل) لانه كان مغضوبا عليه من اخيه الواثق الجالس وقتئذ على العرش ، وقد اجرى الواثق على الرفيقين راتبا يوميا قدره ١٢٠ درهما لكل واحد منهما فانعقدت بينهما الصداقة التى كانت السبب فى ترك سبيل ابى اليقطان ثم الاذن له فى العود الى بلاده بعد ما ارتقى العرش رفيقه بمدة . وقد صح ان الامام ابا بكر لم يحسن الادارة كاسلافه ولا كان دينا عادلا يقظا كآبائه بل انغمس فى الترف والنعيم ومال الى السرف والراحة واللهو واسلم مقاليد الخلافة لصهره محمد بن عرفة احد الاعيان المحترمين المعدود من اجود الناس يدا وابهاهم خلقا وخلقا استمال كثيرا من قلوب الرعية فمالوا اليه قلبا وقالبا واستبد على الامام بالامر الى درجة أغاظت البيت المالك وايقظت الامام فحسن له بعضهم الفتك بابن عرفة فصوبه وتم له ذلك بطريقة سرية ولكنها اكتشفت فاضرم قتله فتنة عظيمة الخطر شديدة البلوى كادت تهلك الحرث والنسل لولا أن تدارك الله الامر بعودة ابى اليقظان من الشرق فبايعوه فى الحال وبعد مشاق واهوال اعاد المياه الى مجاريها والامر الى نصابه

خلافة الامام أبي اليقظان بن محمد أفلح

بويع بالخلافة ابو اليقظان سنة ٢٤١ هـ (٨٥٥ م) تقريبا قيل بعد موت اخيه ابى بكر وقيل بتسليم منه اليه فكان اماما فحلا وشهما عظيما بكل ما تؤديه هذه الكلمة من معنى عادلا عدل الخلفاء الراشدين من قبله مصلحا اصلاح من لا ينسى نصيبه من الدنيا ولا يغفل عما تتطلبه الحياة الاخرى من الزاد والعمل والتقوى والورع . بويع هذا الامام وكانت الاحوال على اشد ما يتصور من الاضطراب والفوضى فقد استحكمت

حلقات الفتنة فى اغلب اطراف المملكة فمن ابن عرفة الى ابن مسالة الى غيرهما من دعاة الثورة وطلاب الشهرة . لكن عزيمة هذا الرجل العظيم وقوة ارادته وثقته بالله وبنفسه تغلبت على هذه المصائب كلها فشمر عن ساعد الجد وجيش الجيوش واستنجد بجبال نفوسة فانجدوه بجيش كثيف ثم حمل بهم على اتباع ابن عرفة قتيل اخيه حملات صادقة متتابعة الى ان اخضعهم واخمد فتنتهم ، ثم كر على محمد بن مسالة الاباضى الذى استولى على العاصمة (تيهرت) وتحصن فيها فلم يخرجه الامام منها الا بعد قتال كبير وجهاد عنيف وحصار دام سبع سنين (وكان ابن مساله قبل ذلك اميرا مستقلا غير تابع لبنى رستم) ولما قهر الامام هؤلاء البغاة وصفا له الجو ولى وجهه نحو الاصلاح والتنظيم فمهد الراحة وبسط الامن واتخذ العدل شعارا فى جميع اعماله ولم يغفل حتى عن الجزارين والحمالين فاستعمل عليهم رقباء فان رأوا قصابا نفخ فى شاة عاقبوه او حيوانا حمل فوق طاقته امروا صاحبه بالتخفيف عليه وهكذا الشأن فى كل شىء كنظافة الشوارع والازقة وسائر المرافق العامة (١)

حرب نفوسة لابن طولون

من اعاظم رجال الدولة فى عهد الامام ابى اليقظان واليه على جبل نفوسة وملحقاته البطل الشهير ابو منصور الياس النفوسى الذى هزم العباس بن طولون هزيمة منكرة . وملخص الواقعة واسبابها : ان العباس بن احمد بن طولون فى غيبة والده عن مصر حدثته نفسه بامتلاك المغرب فجهز سنة ٢٦٧ هـ (٨٨٠ م) جيشا يتألف من ٨٠٠ فارس

---

(١) عمل الإمام أبى اليقظان بمملكته فى ذلك العصر السعيد البعيد عنا بما يزيد على الف سنة دليل قاطع على التقدم المدنى الباهر ، ويقوم الأوربيون فى هذا العصر بمالكهم بما يشبه هذا النظام كجمعيات الرفق بالحيوان — إلا أن عملهم لم يتناول فى الغالب الرفق بالانسان العائش فى غير أوربا وأميركا ، فتراهم هناك علنا يؤثرون كلابهم عليه بالاحسان والرفق والعطف إلى حد كبير حتى عاتبهم الشاعر العربى ذو الحس المرهف بقوله :

جمعية الرفق بالسنور والديك
ماذا عن الرفق بالانسان يلهيك

و ١٠٠٠٠ راجل من سودان ابيه يحمل امتعتهم ٥٠٠٠ بعير واخذ من بيت مال مصر ٨٠٠ حمل دنانير وقيل ان مبلغ ما حمل من المال هو مليون دينار ومائتا الف دينار ثم زحف بهذه القوة وامتلك ما فى طريقه من المدن والقرى وتغلب على جميع ما ارسله اليه بنو الاغلب من الجيوش فازداد قوة على قوة بقهره تلك الحملات المتكررة ، ولعل من اكبرها واهمها واقعة لبدة فقد خصها بالذكر اذ قال متحمسا ونشوة النصر عملت فى نفسه عملها :

لله درى اذ أعدو على فرسى ... الى الهياج ونار الحرب تستعر
وفى يدى صارم أفرى الرءوس به ... فى حده الموت لا يبقى ولا يذر
ان كنت سائلة عنى وعن خبرى ... فها انا الليث والصمصامة الذكر
من آل طولون اما ان سالت فما ... فوقى لمفتخر بالجود مفتخر
لو كنت فى لبدة شاهدت ذكرى اذ ... بالسيف أضرب والهامات تبتدر
اذا لعاينت منى ما تبادره ... عنى الاحاديث والانباء والخبر

ثم زحف بجيوشه المنتصرة الى ان وصل طرابلس فضرب عليها نطاق الحصار مدة قدرها ٤٣ يوما الى ان تعدى بعض جنوده على حرم البوادى وهم اتباع بنى رستم بمقتضى معاهدة عقدت قديما ، فاستغاثوا بابى منصور وشاركهم فى الاستغاثة اهل طرابلس فاغاثهم بجحفل جرار . وقبل زحفه ورد اليه كتاب تهديد من العباس بن طولون هذا نصه : ان اقبل بسمعك وطاعتك والا وطئت بلدك بخيلى ورجلى وابحت حرمك . فاجابه ابو منصور محتقرا له : قل لهذا الغلام اما انك اقرب الكفار منى واحقهم بمجاهدتى فقد بلغنى من قبيح افعالك ما لا يسعنى التخلف معه عن جهادك وها انا على اثر رسالتى اليك . فصبحه على الاثر بنفسه فى ١٢ الفا من رجال نفوسة وهزمه شر هزيمة وذهب ابن طولون لا يلوى على شىء وعاد ابو منصور الى الجبل تحفه الكرامة والعزة بدون ان يتلبس هو ورجاله بشىء من الاموال والذخائر التى تركها ابن طولون واستباحها الاعراب ونهبوها وبنو الاغلب وعمالهم سلبوها من

الاعراب (١)

خلافة ابى حاتم يوسف بن ابى اليقظان

بويع هذا الامام سنة ٢٨١ هـ (٨٩٤ م) يوم وفاة ابيه بالاجماع وكان كاسلافه العظام حسن السيرة مجدا فى الاصلاح مؤثرا للعدل محبا للامة رءوفا بها محسنا اليها لا يألو جهدا فيما يعود بالخير عليها

اهم ما حدث فى زمنه بيعة عمه يعقوب

اشهر من نازعه فى الامر عمه يعقوب بن افلح الذى كان مقيما بزواغة (صبراتة) من نواحى طرابلس وقيامه هذا كان بتشويق من بعض سكان العاصمه « تيهرت » ممن لم يرضهم الامام ببعض المناصب فاعلنوا الثورة على الامام وناجزوه الحرب واستقدموا يعقوب وبايعوه (مع ان بيعة ابى حاتم فى اعناقهم) فاشتد الخطب واحتدم القتال من جديد فكانت حربا ضروسا شديدة الوقع كثيرة الضر . دامت نحوا من اربع سنين يتجاذب فيها الطرفان النصر ، واخيرا انتهت باندحار قوات يعقوب وفوز الامام بحقه وعاد عمه الى زواغة قارعا سن الندم على ما فرط منه فى هذه الحركة التى يقال انه تاب منها اذ لم يعرف الا بما يرضى الله والامة قبلها وبعدها ، وكان عالما جليلا واميرا خطيرا واسع الثروة كثير البر

خروج الطيب بن خلف

وفى مدة هذا الامام تحرك الطيب بن خلف فى حيز طرابلس والجبل لاثارة الفتنة

---

(١) هذا منتهى الورع والنزاهة والترفع الرفيع من أبى منصور عن أموال الموحدين الأمر الذى قلما تجد له مثيلا فى التاريخ . وقد انتقد بعض الأئمة أبا منصور فى هذا العمل الصوفى وقالوا إنه بصفته أميرا الاجدر به أن يضم هذه الاموال الوافرة إلى بيت مال المسلمين ليتقوى به ويصرفه فى المصالح العامة كالملاجىء والمصانع والمدارس وشراء الأسلحة وما اليها من مقومات الدولة . وليس من الحزم أن يترك نهبا للذين لا يعرفون له قيمة . ولا شك انه مال غير منسوب لأفراد معينين من الناس فبيت المال أجدر به وأحق

واقتفاء أثر والده فى الخروج عن الطاعة . فعهد الامام بتأديبه والقبض عليه الى ابى منصور الياس الذى جدد له الامام الولاية حين تسلمه مقاليد الامامة فصدع بالامر ووجه الى الطيب جحفلا جرارا فالتجأ بمحاربيه الى زواغه وهى معقل ابيه خلف واتباعه فقصدها ابو منصور وكلم اهلها فى شان تسليمه فابوا وخالفوا نصيحة احد عقلائهم فحاربهم ابو منصور وهزمهم شر هزيمة وقتل منهم بشرا كثيرا ، ولما كانت زواغة على البحر فقد تمكن من لم يذعن الى الطاعة من الفرار الى جزيرة جربة وفى جملتهم الطيب بن خلف فاقتفى اثرهم ابو منصور وحاصر جربة ثم دخلها سلما وقبض على الطيب واخذه مقيدا الى الجبل وحبسه مدة ثم أخرجه حيث تاب واخلص النية فى الطاعة . فسمى لذلك الطيب ابن الخبيث ابن الطيب (لان جده السمح من اعاظم رجال الدولة الذين اشتهروا بالعدل والفضل) . وفى مدة هذا الامام توفى البطل المنصور الذى لم يهزم له جيش طول حياته ابو منصور الياس المتحدث عنه عليه رحمة الله ورضوانه

واقعة مانو سنة ٢٨٤ هـ (سنة ٨٩٧ م)

بعد وفاة ابى منصور اسند الامام ولايات نفوسة الى افلح بن العباس الذى فل سيفها البتار على يديه وذلك فى واقعة وقعت قريبا من قصر مانو بين نفوسة وبنى الاغلب مات فيها من العلماء اربعمائة ومن العامة اثنا عشر الفا وسببها وتفصيل ما وقع فيها من فظائع بنى الاغلب وتوحشهم المنافى للدين والانسانيه تكفل ببيانها المطولات . ومن بعد هذه الواقعة قلت الامدادات التى كانت ترسل من نفوسة الى تيهرت بل انقطعت تماما واخذت قوتهم فى القهقرى رويدا رويدا الى ان وصلوا فى الضعف والانحطاط الى ماهم عليه الآن . وكذلك امر الامامة بتيهرت فانه اخذ فى الادبار والانحلال والوهن لان النفوسيين هم عدتها القوية ومادة حياتها الروحية ولله الامر من قبل ومن بعد . وفى اواخر ايام الامام نقم عليه بعض قرابته فقتلوه رحمه الله سنة ٢٩٤ هـ (سنة ٩٠٦ م) ونصبوا مكانه واحدا منهم وهو اخوه اليقظان بن أبى اليقظان

امارة اليقظان آخر من تولى من بنى رستم

بعد قتل الامام المرحوم تولى الامر اخوه اليقظان بن ابى اليقظان وبقى نحوا من

سنتين مهدد الجوانب مضطرب الاحوال مقطع الاوصال بعيدا عما من شانه ان يعيد الدولة إلى مجدها بعد ان تمكن الضعف من قلبها النابض وتجمعت اليها اسباب الزوال والانقراض من كل جانب ، وقد استفحل امر الشيعة وظهر داعيتهم عبيد الله على جميع دول المغرب وامارته فلا مفر من سقوط الدولة الرستمية فى قبضتهم أيضا وقد دخل عاصمتها « تيهرت » فعلا احد اعوانهم ابو عبد الله الحجانى ونهبها وقتل من ظفر به من اسرة بنى رستم واستباح اموالهم وقصد المكتبة الكبرى « المعصومة » واخذ ما فيها من الكتب الرياضية والصناعية والفنية واحرق ما عدا ذلك كله ومن ثم فقد الاكثر من مؤلفات المذهب والامر لله وحده

حال الاباضية بعد انقراض ملك بنى رستم

بعد انقراض ملك بنى رستم حدثت حوادث مقطعة لا انتظام لها ولكنها على كل حال تدل على ان الاباضية خصوصا بالجبل النفوسى ما زالت قوية محترمة الجانب . ومن الشواهد على ذلك ان المعز لدين الله الفاطمى رابع الخلفاء الشيعيين لما فتح مصر قائده جوهر ، صمم على اتخاذها عاصمة لملكه بدل المهدية . فسار اليها سنة ٣٦١هـ الموافقة سنة ٩٧١ م بجحافله مستصحبا كل نفيس من امواله وذخائره . ولما وصل طرابلس فر منه جمع من عساكره إلى جبل نفوسة فطلبهم فلم يقدر عليهم[1]. وقد قص الحكاية جماعة

(١) هذه العبارة هى عين ما عبر به الكاتبون فى الموضوع النائب والشماخى والبارونى وغيرهم . وهى تدل على أن المعز الفاطمى حارب نفوسة لأجل استرجاع عساكره الفارين فلم يقدر على استرجاعهم بالقوة ولو لم يكن هناك حرب لما عبروا بقولهم (فلم يقدر عليهم) ولكان جواب الطلب المجرد عن استعمال القوة ـ أبوا وامتنعوا من تسليم الجنود الفارين ـ ومن هذا نعلم أن نفوسة يومئذ لم تزل قوية منيعة مستقلة استقلالا تاما . ولم يؤثر فى قوتها أقل تأثير انقراض الدولة الرستمية . بل ثبت أنها حافظت على استقلالها هذا أكثر من أربعة قرون كما سيأتى الكلام على أمرائها الذين حكموها بعد انفصالها عن دولة تيهرت الرستمية . وهذه القوة هى التى حمت أبا خزر الحامى اللاجىء اليها عند عجزه عن قتال الفاطميين الذين حاربهم وانتصر عليهم مرارا إلى أن همسوا بالاعتراف له بالاستقلال لولا تعنته ، وطموحه الواسع الذى جرله الهزيمة والالتجاء الى جبل نفوسة ولسان حاله يقول : خذ الكل ، أو اترك الكل

من المؤرخين غير الاباضية ، وقد حاول المعز قبل ذلك ان يعقد صلحا مع ابى خزر الحامى الاباضى على ان يعترف له بالاستقلال فأبى فحاربه . وبعد عناء وجهد قهر جيشه وتغلب على اتباعه فالتجأ ابو خزر الى نفوسة الجبل واميرهم اذ ذاك زكرياء من احفاد ابى منصور . فهل هذا الا دليل من اقوى الادلة على قوة شوكتهم وانتظام امورهم والا فكيف يهابهم ملك من اعظم ملوك العالم فى عصره ودولته فى زهرة شبابها وعنفوان قوتها . انى لست ممن يقول ان التاريخ اهمل ذكرهم كلا كيف يكون هذا والعلم منتشر فيهم رجالا ونساء اكثر من جميع الاقوام المعاصرين لهم والمجاورين لديارهم . الا ترى الى تلك الواقعة التى مات فيها من علمائهم فقط ٤٠٠ ـ وانما اقول ما هو اقرب منه الى العقل وهو ان التاريخ ، واعنى به تاريخ الاباضية ، لا بد وانه دون حوادثهم بانتظام وضبط ولكن النار التى اضرمها فى كتبهم المتغلبون هى التى اكلت كل مفيد منها فى هذا الباب وغيره من الفنون والعلوم التى لا بد وان لهم مؤلفات عديدة فيها

فان ما وقع بمكتبة تيهرت عينه وقع بمكتبتى جادو وشروس من مدن نفوسة . والدلائل تدل على ان الجبل قد استقل حالا بعد انقراض الامامة من تيهرت واستمر محافظا على استقلاله عدة قرون اللهم الا فترات قليلة تنشا احيانا عن غارات فجائية او عن اختلافات داخلية يتخذها المتغلب وسيلة الى حكمه الموقت ولكنه حكم لا يدوم الا ريثما يتحد النفوسيون فيقذفون بالمتغلب خارج حدودهم . والتاريخ لم يذكر عن هذا الاستقلال الا شيئا قليلا من اوصافه وبعضا من امرائه بدون ضبط فى الزمان ولا بيان لمدد المتولين وشكل حكوماتهم التى لا بد وان تكون شورية حسبما هو معروف من قواعد المذهب . وهذا الابهام المستمر يبتدى من انقضاء حكم الرستميين ويشتد غموضا فى القرن العاشر الهجرى الى ما بعده وهو القرن الذى توفى فيه صاحب السير الشيخ العلامه أحمد بن سعيد الشماخى الذى ذكر فى سيره مئات من العلماء الاباضيين ونسائهم الشهيرات فى العلم والصلاح وعشرات من الامراء الذين حكموا الجبل . وأتى بشىء كثير من فضائلهم الوافرة وكراماتهم الباهرة ، وافاض فى تمسكهم الشديد بدينهم وخضوعهم التام للحق والعدل واطنب حقا ، ولكن مع الاسف بدون اضافة الحوادث الى تواريخها والرجال الى زمنهم الذى وجدوا فيه . ولنكتف بذكر بعض الامراء

بعض مشاهير امراء نفوسة

منهم أبو عمر ميمون الذى ولى حكم نفوسة وعرف بالعدل وحسن السيرة والشدة فى الامر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وكان رحمه الله ورعا عفيفا الى حد بعيد ورعا عن قبول الهدايا حتى من الاجانب عن حكمه الغرباء عن بلاده ، يحكى انه قدم اليه بعضهم شيئا من الهدايا النفيسة ومنها ٤٠٠ دينار فاباها ونأى بجانبه عنها ، وكانوا اغنياء مثقلين باموال التجارة السودانية ، وقد مروا بالجبل آمنين على اموالهم فرأوا ان من المروءة ان يقدموا شيئا لاميره (ولعلهم اعتادوا ذلك مع غيره) فما كان منه الا ان رد عليهم ما قدموه . فلله ما أعمر هذه القلوب بايمان بالله والقناعة باليسير من الرزق

ومنهم ابو الفضل سهل ، فانه تولى امر نفوسة وسار سيرة ميمون فى العدل والاستقامة ، وقد وقعت له محاربات مع المعتدين على بلاده من العرب وزناته كان النصر فيها حليفه ومنها المحاربة التى استرجع بها غدامس إلى طاعته . ومن حكم نفوسة ابو يحيى زكرياء الارجانى وكان كالمذكورين علما وعملا وورعا وفضلا . وفى مدته ما يشعر بانه حارب العباسيين المعبر عنهم بالمسودة (لان شعارهم السواد) وحارب العبيديين « الشيعة » وانه كان امام دفاع الخ . وقد ولوه بعد ان عزلوا بدون حدث : ابا عبد الله ابن ابى عمرو بن ابى منصور الياس . وبعد موت الارجانى ولوا ابا زكرياء بن ابى عبد الله المذكور فاحسن السياسة وعدل فى الحكم وسد الثغور ودام فى الامارة طويلا وسادت ايامه السكينة والامن والراحة ، واليه التجأ ابو خزر لما انكسر فى حربه مع المعز الفاطمى وبقى فى الحكم مدة تتراوح بين الستين عاما الى السبعين . وكل هؤلاء الامراء والملوك لا انضباط فى تواريخهم وانما السياق يدل انهم كانوا كذلك فى المائة الرابعة من الهجرة وفى النصف الاول من المائة الخامسة

بعض امراء الاسرة البارونية

هؤلاء هم اجدادنا وسلفنا الصالح عليهم رحمة الله . واول من اشتهر منهم ابو هارون بن موسى البارونى اسندت اليه اول الامر المشيخه العامة فى عهد الامير ابى

زكرياء المتقدم ذكره آنفا ثم اسندت اليه بعده الامارة وكان نفوذه شاملا سائر البلاد التابعة للجبل يومئذ الى غدامس وفزان وزلة جنوبا والى سرت وغيرها شرقا والى جبل دمر (من نواحي تونس) غربا . ولما انتخب للامارة انتقل من تملو شايت التي كان ينسب اليها الى بلد ابناين ام قرى ذلك الوادي المنسوب الى كباو في هذا العصر فسميت البلدة باسم آل بيته الى الآن (اتبارون بالبربريه المحرفة) فسكنها نهائيا وبنى بها مسجدا لا يزال قائما الى اليوم ومدرسة . وبالجملة فقد كان كما قالوا من العلماء العاملين والزهاد المشهورين وكهفا لاهل نفوسة اجمعين . ومنهم ابنه العلامة الفحل التقي الورع الامير العادل ابو الربيع سليمان بن هارون ، ولي مشيخة الاسلام على عهد ابيه ثم بعد وفاته ولوه الامارة وكان اسم الشيخ في عصره اذا اطلق لا ينصرف الى احد غيره ولم ينفصل عنه هذا اللقب المحترم حتى في عهد امارته . وكان مطاع الامر نافذ القول واسع البر كثير الاحسان الى طلبة العلم ، وكان يتولى بنفسه تعيين امراء الجهات بعد الفحص والتثبت من كفاءتهم . ثم لا يقبل بعدئذ الطعن فيهم اذا فهم منه وصح لديه ان ذلك لغاية شخصية من حسد او تعصب او غيرهما كما انه لا يتسرع الى نقل المراكز وعزل العمال الا لموجب شرعي : ومما امتاز به عهده السعيد انه كان يستعمل اناسا مخصوصين لرقابة الاسواق يمنعون بيع ما لا يحل من الاموال فيها حتى لا يجد الحرام سبيلا الى الديار النفوسية واهلها . هكذا هكذا والا فلا لا . وينسبون اليه رحمه الله خوارق من الكرمات ليس هذا محل ذكرها فليراجع السير من شاء الوقوف عليها . ومن اشهر آل الباروني في العلم والعمل ابو سليمان داود بن هارون قال الشماخي وبالجملة انه كان في ايامه تضرب اليه اكباد الابل في ايضاح كل مشكل وتفسير كل غريب وجواب كل سؤال ، وشهرته في التقى والورع في بلاد نفوسة بل في جميع المغرب اشهر من ان تخفى اه ووالده كذلك

ومنهم ابو عبد الله محمد بن ابي زكرياء البارونى قال في السير : كان شيخا فاضلا وحاكما عادلا وكثيرا ما يكاتب ابا سليمان داود بن هارون ويستفتيه فيما يستشكل من النوازل

ومن امرائهم ابو منصور بن ابي زكرياء ، قال في السير : كان اماما سالكا على

الصراط وحاكما قاضيا بالاقساط ، قدموه حاكما في جبل نفوسة ، وهو ايضا يستفتى فى نوازله ومشكلاته ابا سليمان داود بن هارون وجوابه اليه بالتعظيم وكانت حكومته بعدابيه

وقد اهملنا ذكر طائفة من آل هـــذا البيت المبرزين فى العلم والسياسة حبا فى الاختصار وفرارا من التطويل ، ولكن على كل حال لا ينبغى ان نهمل ذكر امارة الطود الاشم الذائع الصيت ابى يحيى زكريا لما فيها من بعض حوادث هامة من الجناية على التاريخ ان نغض البصر عنها فنقول :

امارة ابى يحيى زكرياء بن ابراهيم البارونى

من امجد امراء هذا البيت واعظمهم شأنا واطيبهم ذكرا الامام الفحل ابو يحيى زكرياء بن ابراهيم بن زكرياء بن ابى هارون موسى بن هارون البارونى . قال الشماخى رحمه الله : هـو الغاية القصوى فى العلم والعمل والامر والنهى ، جدد المذهب بعد ان اخلق . الى ان قال . وفى ايامه رجعت بنو يفرن وككلة وبابل وتاكمال الى مذهب الوهبية وكانوا قبل ذلك مستاوة وحسنية وخلفية . اتباع خلف بن السمح واحمد بن الحسين وعبد الله بن يزيد المستاوى ، وهم اباضيون الا انهم انكروا امامة الامام عبد الوهاب الرستمى ، وقد تقدم التنبيه على مبلغ الفرق بين هؤلاء وبين جمهور الاباضية وان الخلاف سياسى اكثر من كونه دينيا . وقد طابت ايام هذا الامام واشرب فى قلوب امته حبه وعمهم جميعا عدله واحسانه وكان رحمه الله ينفق انفاق من لا يخشى فقرا ويعطى عطاء ولا البرامكة مثله . وذلك من ماله الخاص لا من بيت مال المسلمين . ومن الامثلة على عظيم كرمه وواسع ثروته انه فى سنة من السنين وزع على جميع اهل الجبل من ككلة الى لالوت مع كثرتهم يومئذ كثرة تفوق اضعافا مضاعفة سكانه اليوم ورع عليهم لكل نفس او لكل بيت خمسة دراهم وثمن زيت . وزاره بنو يفرن فى هرمه تبركا فلما ارادوا الوداع اعطى لكل واحد منهم عشرة دراهم وقيل قبض لكل واحد منهم قبضة فاراد ان يعطى لحاكمهم عون بن حريز ما بقى فامتنع وقال ما اتيت من بلادى اريد دنيا وإنما أريد أن تدعو لى الله فدعا له . قال الشماخى فبقيت سيادة بنى يفرن فى ذريته إلى يومنا هذا ببركة الشيخ . ومما ذكره عنه انه كان بمدرسته ثمانون

طالبا يدرسون العلم على نفقته ، وفى احدى السنوات المجدبة هموا بالرجوع إلى أوطانهم رأفة بالشيخ فعلم بمـــا عزموا عليه فمنعهم منعا باتا وافهمهم أن الامر ليس كما يظنون فاطمأنوا ورضوا بالاقامة . إلى أن قال : ولما مات حزن عليه أهل مذهبه وطلبته ورثاه كثير منهم بمراثى طويلة ، وابنه حتى ابكى الناس العلامة يوجين بن نوح الخ . وفى أيامه استفحل امر ابن غانيـة الميورقى الذى سبى ونهب كثيرا من الاقوام والاقاليم واحتل واستحل كثيرا من عواصم افريقيا الشمالية وحارب الجبل النفوسى مرارا ينهزم مرة وينتصر اخرى وفى احداها أحرق ١٢ الفا من زيتون ـ جناون ـ الكائنة بسفح جادو ولكنه على كل حال لم يتمكن من الاستيلاء على الجبل وإنما فى آخر غزواته صالحوه إذ أحسوا من أنفسهم الضعف عن مقامته فدفعوا له مليونى دينار وذلك فى سنة ٥٩٥ تقريبا الموافقة لسنة ١١٩٨ م وهذا المبلغ وان يكن غرامة حربية يدفعها المغلوب عادة إلا أنه يصلح أن يكون دليلا لامعا على قوة نفوسة الجبل وثرائهم الواسع إذ لم ينقل انه اغرم اقليما بمثل هذه الغرامة او ما يقاربها على كثرة ما كان يفعله من هذا القبيل مع الامم التى تغلب عليها ، فسبحان من يغير ولا يتغير[1]

---

(١) أما نفوسة الجبل فى هذا الزمان فقد فشا فيهم الجهل والفساد ، فتفككت وحدتهم وتمكن الحسد فيما بينهم وابتعدوا عما كان عليه أسلافهم من التمسك بالدين والتحلى بالاخلاق الفاضلة كالصدق فى القول والجد فى الاعمال والوفاء بالوعود والعهود ، تلك الأخلاق التى كانوا يمتازون بها من بين الاقوام الاسلامية والطوائف الدينية ، كانوا مثلا أعلا فى الخوف من الله والتورع عن محارم الله ، يمتثلون الاوامر ويجتنبون النواهى ، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ولا يخافون فى الله لومة لائم .

أما أحفادهم اليوم فهم أبعد ما يكونون عن هذه المكانة من الدين والأخلاق . إنهم منهمكون فـــيما حرم الله ، لا يزعهم وازع ما عن الزنا والربا والفسق والدخان وشرب الخمور وترك الصلاة والزكاة وما اليها من الواجبات تركا وعملا . وهذا فضلا عن الكذب والبهتان وشهادة الزور فى بعض الأحيان . هذه الحالة المؤسفة لم يسلم منها إلا من سلمه الله وقليل ما هم . . وإذا قيل لأحدهم اتق الله أخذته العزة بالاثم ، بل ربما أعلنها عليك حربا عوانا لا هوادة فيها ولاهدنة

أصل العائلة البارونية

واستمرار نفعها

لا يوجد فى المتنورين من أهل الجبل وغير الجبل من يجهل مكانة البيت البارونى وأن اصله من الجبل الاخضر بعمان وانه من أمجد بيوتات الفضل والزعامة فى ذلك القطر العامر ، وان أبناء فروعه القائمة هناك ما زالوا ممن يشار اليهم بالبنان وتسند اليهم مقاليد الاقاليم بمملكة عمان من بلاد العرب وزنجبار ودار السلام من إفريقيا الشرقية . أما الفرع الذى استوطن الجبل فقد ظهر ذكره وذاع صيته فيما بين أواخر القرن الرابع الهجرى واوائل القرن الخامس ، وعند ما ذكر صاحب السير ابا هارون الاول ذكر معه أحد العلماء الاعلام المعاصرين له قائلا هو صنو ابى هرون فى العلم لا فى النسب الخ . ومعلوم ان هذا الاحتراز لم يكن الا لوجود بون شاسع بين المذكورين بحيث لا يسعه الغض عن بيان الفارق بينهما . هذا ولا يصح ما حادثنى به مرة أحد الافاضل البحاثين من علماء القطر الطرابلسى فى أصل نسبنا آل البارونى وتعليل تسميته إذ قال ممازحا جادا ان الذى يظهر لى أن أصلكم من أشراف الرومان أو الطليان الذين استوطنوا الجبل قديما والذين يحملون لقب (بارون) فغلب بعد ذلك على العائلة وصار علما عليها إلى أن ظهر الاسلام فاسلمت العائلة تحمل معها لقبها الموروث ومجدها المحفوظ بين قبائل نفوسة قبل الاسلام وبعده . فقلت له هذا استظهار جميل وتعليل معقول . ولكنه غير صحيح . ولنكتف من ذكر آل البارونى باولئك الافذاذ الأماجد مشيرين إلى أن نفع الاسرة البارونية لاهل الجبل دينا ودنيا لم يزل متواترا أبا عن جد منحدرا من الاصول إلى الفروع إلى الآن وما برح ينبوعا فياضا بالمعارف على ساكنى الجبل النفوسى من أول القرن الخامس الهجرى إلى يومنا هذا لا يزاحمه فى ذلك أى بيت من بيوت المجد اللهم الا آل أبى منصور فى الاول وفى أوقات متقطعة بعد ذلك ، أو آل الشماخى الذين منهم الامام الشيخ عامر صاحب التصانيف العديدة والشيخ أبو محمد عبد الله بن عبد الواحد والشيخ أحمد صاحب السير فانهم جاذبوا أجدادنا الطرف من الوجهة الدينية ابتداء من القرن الثامن إلى منتصف القرن الثانى

عشر فقط ، ثم فشا الجهل فى الشماخيـــين وانفرد البارونيون بالتقدم الدينى والمدنى كاسلافهم ، ولله الامر من قبل ومن بعد (١)

انتشار المذهب الاباضى بعمان والاقطار الشرقية

إن انتشار مذهب الاباضية ببلاد الشرق عمان وخراسان والعراق ومصر وغيرها أقدم عهدا من انتشاره بالمغرب ، كيف وامام المذهب جابر بن زيد نفسه من ذلك القطر (عمان) السابق إلى اعتناق الاسلام بدون حرب ولا عناء . واذ قد تقلص ظل المذهب الاباضى من أغلب الاقطار الشرقيـــة ولم ترسخ دعائمه وتتوطد أركانه إلا فى عمان ومستعمرات عمان فلنأت اذا بخلاصة من تاريخ عمان من لدن رسول الله ﷺ إلى اليوم لخصها أحد علمائه الاجلاء الشيخ محمد بن صالح بن عامر الطيوانى ونشرت بمجلة « المنهاج » الغراء ، وساضيف بعض ما كتبه غيره ليكون كالشرح لما يلزم شرحه منها قال :

---

(١) قرأ أحد بنى شماخ هذه النبذه فثار وعربد زاعما أنها إهانة من المؤلف لأسرته ، فعهد لبعض البسطاء بان يقاطعوا تأليفه وأن لا يشتروا نسخة من نسخه احتجاجا على سلوكه وأنا أقول انه كان فى عمله هذا يمثل من قال فيه الشاعر :

يا ناطح الجبـل العـالى لتوهنـه أشفق على الرأس لا تشفق على الجبل

وبما أن هذا الفهم السقيم لم يخطر ببالى ، فقد لزم أن أقرر بأنى لم أقصد مما ذكرته إلا تقرير الأمر الواقـع ، عالما بأنه لا يصح للكاتب فى أى موضـوع كان أن يشوه الحقائق ويقلب الاوضاع إرضاء لهذا أو ذاك . وقد صرح العلامة الشيخ سعيد الشماخى فى احدى قصائده بأن الجهل شائع فى أسرته وفى يفرن بنى جلدته مخاطبا بها صديقه العلامـة الورع الشيخ عبد الله والد البـطل الشهير سلـيمان باشا البارونى ومحرضا إياه عـلى القيام بواجب الوعظ والارشاد ومحاربة الجهل بوطن يفرن . وهل يصح لنا أن نعتـبر الشيخ سعيد الشماخى مهينا لنفسه ولأسرته ولبنى وطنه حينما عبر بشيوع الجهل فيهم كما مر

بسم الله الرحمن الرحيم

« هذه نبذة من تاريخ عمان »

ظهر النبي ﷺ وعلى عمان عبد وجيفر ابنا الجلندا ملكين عليها فبعث النبي ﷺ اليها عمرو بن العاص وبعث معه كتابا لهما ذكر فى كتب التاريخ ، فذهب عمرو بالكتاب حتى وصل صحار قصبة عمان وقتئذ وبعث إلى ابنى الجلندا بالكتاب واجتمع بهما بعد ذلك فدعاهما إلى الاسلام بعد مناقشة جرت فاسلما طوعا وانقيادا ودعيا قومهما إلى الاسلام فاسلموا جميعا وسلموا له الصدقات ، فلم يزل عمرو مقيما بعمان إلى أن بلغه خبر وفاة النبي ﷺ فرجع إلى المدينة وصحبه عبد بن الجلندا ومعه أعيان عمان فقدموا على أبى بكر رضى الله عنه ففرح بمقدمهم واثنى عليهم خيرا وعلى انقيادهم واذعانهم إلى الاسلام بدون حرب ولا قتال فاقرهما أبو بكر على قومهما ولم يزالا ملكى عمان إلى أن ماتا فى خلافة عثمان بن عفان فولى بعدهما عباد بن عبد بن الجلندا ولم يزل ملكا فى قومه حتى مات فى خلافة على بن ابى طالب . فلما أفضى الملك الى معاوية لم يكن له فى عمان سلطان ولا لمن بعده إلى أيام عبد الملك فانه لما ولى الحجاج العراق رغب فى الاستيلاء على عمان فلم يزل يجهز الجيوش اليها وفى النهاية استولى عليها بقيادة مجاعة ابن شعوة وهرب ملكا عمان سليمان وسعيد ابنا عباد بذراريهم إلى بلاد الزنج ولاهل عمان فى حرب الفرس أيام الخليفة عمر بن الخطاب رضى الله عنه اليد الطولى ومشاغلتهم لهم . منها وقعة جاش التى قتل فيها شهرك أحد قواد الملك يزدجرد . وبعد استيلاء الحجاج عليها لم تزل تحت النفوذ الاموى إلى أيام أبى جعفر المنصور حيث استقل أهل عمان ببلادهم فعقدوا الامامة للجلندا بن مسعود وهو أول امام بعمان وذلك سنة ١٤٣ هـ (سنة ٧٦٠ م) . ثم ان أبا جعفر المنصور جهز جيشا تحت قيادة خازم بن خزيمة فتلقاه الامام الجلندا برأس الخيمة المعروفة بالصبر والتقى الجيشان هناك وقتل الجلندا ورجع خازم برأس الجلندا إلى المنصور ولم تحدث شيئا بعمان . ثم عقدوا الامامة لمحمد بن عفان فعزل واقروا مكانه الوارث بن كعب الخروصى سنة ١٧٧ هـ (سنة ٧٩٣) م فجهز هرون الرشيد إلى عمان جيشا بقيادة عيسى بن جعفر بن

المنصور فتلقاه أهل عمان بوادى حتى (واد باعلى صحار) فأسروا عيسى وهزموا جيشه فبقى الوارث إماما بعمان اثنى عشر سنة وستة أشهر . ثم نصب أهل عمان بعده غسان بن عبد الله إماما إلى أن مات سنة ٢٠٧ هـ (سنة ٨٢٢ م) وكانت امامته خمسة عشر عاما وسبعة أشهر وثمانية أيام . ثم عقدوا الامامة لعبد الملك بن حميد سنة ٢٠٨هـ (سنة ٨٢٣م) ومكث اماما ثمانية عشر عاما وتوفى . ثم عقدوا الامامة لمهنا بن جيفر سنة ٢٢٦ هـ (سنة ٨٤٢ م) ومات سنة ٢٣٧ هـ (سنة ٨٥١ م) فكانت إمامته عشرة أعوام وأشهرا ، ثم عقدوها للصلت بن مالك الخروصى فى ذلك اليوم سنة ٢٣٧ هـ ، فكانت مدة إمامته على عمان ٣٥ عاما و٧ أشهر وأياما ، وقبل وفاته اختلف أهل عمان فى خلعه ، فافترقوا فرقة رأت الخلع لأنه صار شيخاً عجز عن القيام بأعباء الإمامة ، وفرقة لم تر ذلك ، فوقع بينهما القتال والشقاق ، فانتهز عامل المعتضد بالبحرين محمد بن نور هذه الفرصة واستأذن المعتضد بالله فى فتح عمان والاستيلاء عليها ، وحبب له ذلك ورغبه فى الانتقام من الفرقة اليمانية وهى الفرقة الخالعة للإمام ، وأنه يشد عضد الفرقة النزارية التى حرمت الخلع ، فأسعفه المعتضد إلى ما طلب ، وخرج إلى عمان فى جيش كثيف فانضمت إليه الفرقة النزارية فاحتل نزوى بعد وقائع وأوقع بالفرقة اليمانية وقتل الإمام عزان بن تميم الذى نصب بعد موت الصلت ، وبعث برأسه إلى بغداد . فبقيت عمان أربعين عاماً تحت النفوذ العباسى

إلفات نظر واعتـــذار

بالله تأمل وانظر إلى هذا الخلاف البسيط كيف تجسم ودخله التعصب فى الرأى إلى حد أدى إلى سفك الدماء الغزيرة والشقاق المؤلم الذى أوجب تدخل بنى العباس واستغاثة أحد الفريقين بعاملهم على من شاقه فى الأمر وخالفه فى الرأى . وهذا هو الشأن فى عاقبة التخاذل وسوء التفاهم فإنها دائماً تكون سيئة المصير وخيمة المآل ، يشهد لذلك قول الله عز وجل ﴿ ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم ﴾

هذا واعلم أنه ليس بأيدينا من المادة ما نتكمل عليه فى ذكر مآثر كل إمام من هؤلاء الأئمة الأعلام ، وما كانت عليه أيامه من أمن وعدل ورقى وعلم . وإنما يمكن

أن نقول — استناداً إلى قواعد المذهب فى انتخاب الأئمة — إن سيرة هؤلاء وسلوكهم فى أعمالهم الإدارية وأحكامهم القضائية لا تكون إلا وفق الشرع الحنيف وطبق ما عليه الخلفاء الراشدون من السلف الصالح فى كل مايؤيد الدين وينصر الحق . اهـ

قال الشيخ : ثم اجتمع رأى أهل عمان وعقدوا الإمامة لسعيد بن عبد الله القرشى سنة ٣٠٠ هـ (سنة ٩١٢ م) وحرروا أنفسهم ، ثم قتل الإمام سعيد فى سنة ٣٢٨ فى فتنة أهلية ، فعقدوا الإمامة لراشد بن الوليد

تنازع الإمامة الشرعية والملكية المطلقة

وفى أيام الإمام راشد المذكور ظهرت بعمان دولة بنى نبهان ، وهم بطن من الأزد ، فغلب هؤلاء على أزمة الأمور ، وأسقطوا الإمامة بعمان وجعلوها ملكا إلى سنة ٤٤٥ هـ (سنة ١٠٥٣ م) حيث عقدوا الإمامة للخليل بن شاذان الخروصى ثم من بعده راشد بن سعيد ومات سنة ٥١٣ ، ثم تغلب بنو نبهان مرة أخرى على عمان ، وفى أيامهم استولت دولة آل بويه على سواحل عمان ، ثم غلب بنو نبهان على السواحل وأجلوا منها العجم . وفى سنة ٨٨٥ هـ (سنة ١٤٨٠ م) عقدوا الإمامة لعمر بن الخطاب الخروصى ، ثم غلب عليه بنو نبهان ، وظل الحال هكذا الملك النبهانى بجهة والإمام بجهة ، وفى خلال هذه الأعوام استولت دولة البرتغال على سواحل عمان كلها وحصنت مدينة مسقط وعمرتها وجعلتها بندراً حربياً لها ، فتم بذلك استيلاؤها على الخليج العربى كله ، وبقيت مسيطرة عليه إلى أن أجلاها عنه آل يعرب .

دولة آل يعرب وأئمتها

وفتوحاتهم العظيمـــة

وفى سنة ١٠٣٤ هـ (سنة ١٦٢٤ م) عقدوا الإمامة لناصر بن مرشد اليعربى ، وهو أول إمام من دولة آل يعرب الطائرة الصيت، فناشب البرتغال الحرب، وأجلاهم عن جميع السواحل العمانية إلا مسقطا فإنه عقد الهدنة مع البرتغال ومات سنة ١٠٦٠ هـ (سنة ١٦٥٠ م) فعقدوا الإمامة بعده لابن عمه سلطان بن سيف اليعربى ، فنقض الهدنة مع القائد البرتغالى واستولى على ذخائرهم وحصونهم اللاتى شادوها فى قنن الجبال الشامخة ، ثم شرع فى بناء أسطول ضخم وجعل مسقطا ميناء حربياً له وأعد فيه المعدات الكافية من مدافع وغيرهـا ، فطرد البرتغال من الخليج العربى كله بعـد وقائع هائلة أهمها واقعة كنج من بلاد العجم ، واحتل مضيق هرمز

ثم هاجم البرتغـــال فى سواحل الهند فاستولى على الديو وخربها ووسى وبمبى وغيرها من المدن الشهيرة بساحل الهند، وبعد أن أجلاهم عنها وجه فى مطاردتهم أسطوله إلى إفريقيا الشرقية ، واحتل فازة وبتة وكلوة ، وحاصر ممباسة ، واحتل مضيق باب المندب وجزيرة قمران ، ومات رحمه الله بنزوى سنة ١٠٩٠ هـ (سنة ١٦٧٩ م)

ثم عقدوا الإمامة لولده بلعرب ، ومكث فى الإمامة أربعة عشر عاماً ، ومات خليعاً ودفن بقصر جبرين سنة ١١٠٤

ثم عقدوا الإمامة من بعده لأخيه سيف بن سلطان بن سيف ، فزاد فى بناء الاسطول الذى أنشأه والده ، وأضرم نار الحرب على ممباسة ـ ثغر بافريقية ـ فاستولى عليها وعلى إفريقيا الشرقية كلها إلى رأس الرجاء الصالح ، وذلك بعد حروب طاحنة ذكرت فى التاريخ . ومات رحمه الله بالرستاق سنة ١١٢٣ هـ (سنة ١٧١١ م)

ومن فتوحاته الرياض عاصمة آل سعود اليوم والاحساء . روى المؤرخون أنه تولى فتح الرياض بنفسه وأتى بنحو ٣٥ أميراً من أمراء نجد أسارى إلى « نزوى » عاصمة عمان ، ويروى عنه أنه قال : إن أعانى الله لأجعلن المسافر من نزوى إلى مكة يذهب بلا زاد ، يعنى يبذل الهمة فى عمران الطريق . أما تعميره عمان فحدث عن البحر ،

فكم له من مدن بعمان عمرها وأنهار أجراها وحصون شادها ، ولو لم يكن إلا بلاد الباطنة وهى مسافة ١٣٠ ميلا كلها متتابعة العمران آهلة بالأباضية لكفاه فخراً مدينة العلياء أبهج بلاد عمان وأنقاها هواء

ثم عقدوا الإمامة بعده لولده سلطان ، فوجه عنايته لحرب دولة إيران ، وانتزع من أيديهم جزيرة القسم والبحرين ولارك وجاش وبندر عباس بعد حروب طاحنة وأهمها وقعة البحرين ، وقد أطنب فى وصفها شعراء عمان فى ذلك الوقت وذكر من قتل فيها من قواد العرب وعلمائهم ، ومات بالحزم سنة ١١٣١ هـ (سنة ١٧١٨ م)

وبعده اختلفت كلمة أهل عمان : فرقة أرادت الإمامة لابنه الصغير سيف بن سلطان وهم الرؤساء والقواد ، وفرقة أرادت الإمامة لعمه يعرب وهم العلماء ، فوقع القتال بينهما واستمر الخلاف ، وكان من أشهر قواد عمان محمد بن ناصر الغافرى وخلف بن مبارك الهنائى ، والكل منهم منضم إلى فريق ، فمن انضم إلى خلف سمى هنائى ومن انضم إلى محمد بن ناصر سمى غافرى ، وهذا الخلاف باق أثره إلى اليوم بعمان

غارة العجم وسقوط آل يعرب

وفى غضون هذه الفتنة انتهزت دولة إيران الفرصة فى عصر السلطان نادر شاه ، فأرسل جيشاً مؤلفاً من ستين ألفاً تحت قيادة تقى خان ، فنزلوا رأس الخيمة ، فاضطرمت نيران الحروب بينهم وبين ولاة آل يعرب فى الشارقة ودبى ورأس الخيمة فانتزعوا هذه البلاد من أيدى الولاة ، فزحفوا بجيشهم الكثيف إلى صحار فحاصروا واليها السيد أحمد بن سعيد جد العائلة المالكة الآن ، فدافعهم عن البلاد ، ولم يتمكنوا من الاستيلاء عليها فتركوا قسما من جيشهم لحصارها وزحف الباقون إلى حصون الباطنة ومسقط فاحتلوها . وفى خلال هذه الفتن الثائرة مات الولد الصغير المختلف فى شأنه وبموته اجتمع أهل عمان على كلمة واحدة ، وناشبوا الأعاجم الحرب ، وأزالوا الحصار عن صحار ، وعقدوا البيعة لواليها السيد أحمد بن سعيد

دولة آل سعيد ومآلها

فى سنة ١١٦١ هـ (سنة ١٧٤٨ م) بايعوا السيد أحمد المذكور ، وهو أول إمام من هذه العائلة ، فقام بالأمر خير قيام ، وشمر عن ساق الجد ، وقاتل الأعاجم حتى اجلاهم عن مسقط وغيرها من بلاد عمان ، وتوفى الامام أحمد بن سعيد سنة ١١٩٨ هـ (سنة ١٧٨٣) م

وتولى من بعده السيد سعيد بن احمد ومات سنة ١٢٠٣ هـ

ثم ملك من بعده السيد سلطان بن أحمد فصرف همته إلى توسيع نطاق المملكة ، فاستولى على البحرين سنة ١٢١٥ هـ (سنة ١٨٠٠ م) وبنى بها القلعة المعروفة اليوم بقلعة عراد ، واستولى على ثغور مكران من بلاد بلوخستان ، واسترجع من إيران دبى والشارقة إلى حدود قطر ، وانتزع أيضاً منهم جزيرة القسم ولارك وبندر عباس وميناو . ومات قتيلا ، قتله بعض اللصوص فى البحر قريباً من رءوس الجبال سنة ١٢١٩

ثم ملك بعده ولده السيد سعيد بن سلطان سنة ١٢٢١ هـ (سنة ١٨٠٦ م) فاتخذ مسقط عاصمة وانتقل إليها من داخل عمان وجعلها مركزاً تجارياً مهماً بعد ما كانت ميناء حربياً ، وصرف همته إلى توسيع المملكة فاحتل إفريقيا الشرقية كلها وزنجبار من أيدى ولاة آل يعرب المستقلين بها إبان الفتنة المتقدم ذكرها آنفاً ، وذلك بعد حروب طاحنة أهمها معركة سيوى التى قتل بها من العمانيين ثلاثة آلاف . ثم شغب اهل البحرين عليه واعتصموا بآل سعود حكام نجد وأخرجوا العمانيين منها ، فواقعهم السلطان سعيد ، وأخيرا اتفقوا معه على أن يدفعوا له سنوياً خمسين ألف ريال فضة اتاوة . وفى زمانه استرجع الإيرانيون بعض البلاد من العرب وهى ميناو وبندرعباس والقسم . ثم سافر السلطان إلى زنجبار ومات بالبحر قبل وصوله ودفن بزنجبار وذلك سنة ١٢٧٣ هـ (سنـــة ١٨٥٦ م) . وسبب موته على ما ذكره القس مؤلف رحلة السلطان برغش إلى أوروبا ، هو أنه لما أعلنت دولة إيران الحرب عليه بقصد استرجاع بلادها منه منعته دولة بريطانيا عن إرسال جيش لأجل مساعدة الحامية هناك حتى

غلب عليه الأيرانيون وقبضوا حصونهم وأسروا العرب ، فاشتمل على السلطان اليأس وغلب عليه الهم والحزن ، فسافر إلى زنجبار ومات حزيناً

وقد استخلف على مملكة زنجبار ولده السيد ماجد ، وعلى مملكة عمان وما يتبعها ولده السيد ثوينى . وفى أيام ثوينى منع أهل البحرين الاتاوة التى كانوا يدفعونها لأبيه ، وقد اتفق مع حكومة شاه إيران على استئجار بندر عباس من الشاه ويدفع له عوضاً مالياً . وفى أيامه جهز إلى محاربة ماجد وانتزاع زنجبار منه ، فاعترضته حكومة الانكليز فى رأس الحد وصدته عن مقصده ، ووقع الصلح بواسطتها بينه وبين أخيه ماجد على أن تدفع حكومة زنجبار على رأس كل سنة أربعين ألف ريال ، وهذا الدفع باق إلى يومنا هذا سنة ١٣٤٣ هـ ، ومات ثوينى قتيلا بصحار ، قتله ابنه السيد سالم سنة ١٢٨٢ هـ (سنة ١٨٦٥ م)

وملك بعده ولده سالم وبقى بعده سنتين ونصفاً ، وخلع

وعقدوا الإمامة بعده لابن عمه الإمام عزان رضى الله عنه وهو ابن قيس بن عزان بن قيس ابن الإمام أحمد بن سعيد ستة ١٢٨٥ هـ (سنة ١٨٦٨ م) واستولى على جميع عمان ، واستشهد بمطرح سنة ١٢٨٨ هـ (سنة ١٨٧١)

وملك بعده السيد تركى بن سعيد ، وفى أيامه استولى على ظفار وألحقها بمملكته . وفى أيامه انفصلت المكلا ثغر حضرموت عن حكومة مسقط ، واستولى الإيرانيون على شهبار أحد ثغور مكران ، ومات سنة ١٣٠٥ هـ (سنة ١٨٨١)

ثم ملك من بعده ولده السيد فيصل بن تركى ، وفى أيامه أعنى فى جمادى الثانية سنة ١٣٣١ هـ (سنة ١٩١٢ م) حدثت الثورة بعمان ، ونصب الإمام سالم بن راشد الخروصى ، واستولى على غالب داخلية عمان ، ومات السلطان بعد الثورة فى تلك السنة ليلة رابع ذى القعده

وملك ابنه السلطان تيمور بن فيصل . وفى أيامه قتل الإمام سالم بن راشد سنة ١٣٣٨ هـ (سنة ١٩١٩) قتله أعرابى أراد إنفاذ حكم عليه . فبايع العمانيون محمد بن عبد الله الخليلى إماماً بعده

وفى أول سنة ١٣٣٩ انعقد « مؤتمر السيب » وعقد هناك صلح بين السلطان والإمام على بنود : أهمها عدم تدخل السلطان فى داخلية بلاد الإمام ، وعدم تدخل الإمام فى داخلية بلاد السلطان

انتهى ما لخصه الشيخ العمانى الفاضل ، وهو على ما فيه من الاختصار مفيد للغاية ، إذ غالب الناس لا يطلبون من تاريخ الأمم التى يجهلونها أكثر مما ذكره ، والتفاصيل المسهبة بذكر العلماء والأدباء والشعراء والوقائع الداخلية حربية كانت أم مدنية وغيرها وغيرها من كرامات الأولياء والصالحين وفضائل الأئمة والملوك العادلين إنما يعنى بها ويحرص على الوقوف عليها فريقان من الناس : أهل ذلك القطر خاصة أو علماء التاريخ المختصون . نعم لتتم الفائدة للقارىء لانحرمه من ذكر بعض تعاليق مفيدة لكاتبين شهيرين من كتاب هذا العصر الذين كتبوا حول تاريخ أمة عمان ذات العظمة الخالدة والصيت البعيد

تعاليق مفيـــدة

بقلم الشيخ اطفيش والأمير شكيب

لما تم الجزء الثانى من « تحفة الأعيان بسيرة أهل عمان » لمؤلفه العلامة الإمام أبى محمد عبد الله بن حميد السالمى العمانى . قال العلامة أبو إسحاق إبراهيم اطفيش الميزابى : وبعد فقد تم طبع الجزء الثانى من « تحفة الأعيان بسيرة أهل عمان » فكمل به هذا الكتاب الفريد ، الذى كشف لنا حال قطر من أعظم الأقطار الإسلامية تاريخا وأهمها شوكة ودولة . وقد كان تاريخ عمان - ولا يزال معظمه - عنا غامضاً ، ولكن هذا الكتاب بين لنا عن صفحات منه جليلة وأطوار فخيمه وذكريات تحمل إلينا أنباء جميلة وأخرى عليلة اسيفه ، وكم بين طيات التاريخ من عبر وآيات بينات كان منها نذير للبشر ، وتقلبات هى إحدى الكبر

ولقد أحسن المؤلف رحمه الله فى ترتيب أطوار الحكم بعمان من إمامة وملكية حسب الزمان . منذ ظهور الحكم المستقل فى عهد التابعين إلى آخر أيام المؤلف . أقول : لم يصل إلينا الجزء الأول من التحفة ، أما الجزء الثانى فمبدؤه من دولة اليعاربة

إلى عهد المؤلف رحمه الله المتوفى فى العقد الثالث من هذا القرن . قال الشيخ اطفيش : فكان حسن هذا الترتيب إحدى مزايا الكتاب . ولئن فات المصنف أن يضم إلى كتابه كثيراً من رسائل أئمة العلم إلى أئمة الحكم إذ لها علاقة بتاريخهم ، فانه لم يدخر وسعاً فى جمع عهود الأئمة إلى ولاتهم وقوادهم وأمرائهم ، وكأنه رحمه الله يرى أن يحفل بشأن الأئمة حيث كان يذكر ما احتوى عليه كل إمام من كرائم الفعال ومحاسن الخصال ، وما ازدهر به عهـــده من علم وعدل ودين ومساواة بين الناس فى الحق ، ومشاورة أهل الحل والعقد من العلماء فى تصرفاته ، بحيث يخرج القارىء من مطالعته وقد تصورت له صفحة من تاريخ الحكم الشورى كما كان فى عهد الخلفاء الراشدين ، ومقتضى ما يرشد اليه الكتاب العزيز ﴿ وانه لتنزيل رب العالمين ﴾ ، ولم يحفل كربذ أطوار الحكم الفردى وما فيه من سوء الاستبداد واقتراف المنكرات ، والظلم من شيم تلك النفوس غالباً . وكان من مقتضى التاريخ أن يلم بكل أدوار الأمة التى يكتب عنها الكاتب ، إلا أنه ربما يعتذر عن المؤلف بأن علماء الشريعة يتورعون عن ذكر حوادث الجورة وما يأتونه من الجرائم بدعوى أن ذلك من قبيل نشر الباطل . والحق أن هذا ليس بعذر ، وأخطأ من يلتمسه . وإنما المصنف لم يحفل فى تاريخه هذا بعهد الجورة تفصيلا لعدم وقوفه عليه وقوفاً يجعله واثقاً بما يكتب ، ويدلك على هذا أنه ذكر بعض وقائع من هذا القبيل ، وكشف أسرار بعض المستبدين وما بيتوه من حيل توصلوا بها إلى الحكم ، وسفك دماء بريئة صعدوا على جثثها إلى أريكة الملك وامتطوا غواربها إلى أطماعهم ، فكانوا وبالا على الأمة حيناً من الدهر ، كما وقع فى عصر بنى نبهان . والحق أن عمان ليفتخر بعظمته التاريخية عظمة العلم والفتح ونشر لواء الإسلام فى كثير من أقطار الشرق والأقطار الإفريقية الشرقية وجهاد أئمته وكثير من ملوكه فى حفظ استقلاله ، ويحق له أن يباهى بأئمته الهداة الراشدين الذين رفعوا منار الحق والدين ، وأقاموا حدود الله بلا هوادة ، ولم يخافوا لومة لائم ﴿ قل ان الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم ، يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم ﴾

وقال حفظه الله فى موضع آخر : يكيف بعض الكاتبين من غير أصحابنا ولا

سيما المستعمرون الانقلابات بعمان حسب ما يشاء له هواه . وقد يشتد بعضهم فى القول إلى حد الطعن السخيف ، ولم يتبينوا السر فى وجودها . وذلك أن الأمة العمانية مشربة بروح النظم الشرعية التى يجرى عليها الأئمة ، وهى الحكومة المبنية على الشورى وانتخاب الإمام والعمل بالشريعة وردكل شئ إلى حكمها حسبما كان عليه الخلفاء الأربعة ـ قلت وخلفاء بنى رستم فى المغرب ـ وإذا ضعف هذا الأسلوب من الحكم برزت الملكية إلى الميدان فيظهر الصراع بين الملكية والإمامة ، وهو كالصراع بين الملكية والجمهورية فى الأقطار الغربية . ومن ذلك الانقلاب الذى ظهر على أثره الإمام عزان بن قيس رضى الله عنه فانه إمام شرعى بإجماع الأمة . ووصف الأجانب له بما هو هراء لا يطمس الحق ، ولا عبرة بمن تبعهم من المسلمين فى هذيانهم . والله أعلم . اهـ

وقال الأمير شكيب أرسلان ـ بعد أن ذكر بإسهاب وإعجاب ما كانت عليه الدولة العمانية فى بعض عصورها من عظمة وقوة وفتح واستعمار ومدنية وعدل الخ ـ قال : هذه مملكة عمان التى كانت أقوى دولة بحرية فى آسيا كلها لا فى بلاد العرب وحدها ، والتى قرأت فى بعض المؤلفات الأوروبية أنها منذ نحو مائة سنة كانت تملك ١٠٠ باخرة حربية قد آل أمرها بتلاعب انكلترا بأمورها إلى أن سقطت عن عزها وعاد بدرها عرجوناً ، وصارت إمارة صغيرة لا تملك لنفسها نفعاً ولا ضراً ، ولا يقدر أميرها أن يأتى بأمر مهما كان تافهاً إلا إذا أشار به المعتمد البريطانى . فنزف هذه الحقيقة إلى أولئك البله من أبناء جلدتنا الذين لا يزالون يحلمون بأن انكلترا لا بد أن تؤسس لهم دولة عربية . . . إلى أن قال :

وأما زنجبار والمستعمرات التى كانت لعمان فى شرق إفريقية فقد تقاسمتها إنكلترا مع ألمانيا وإيطاليا ، ولم تبق لسلطان زنجبار على جزيرة زنجبار سوى اسم السلطنة فقط

وهذه الجزيرة مساحتها ١٦٢٠ كيلو متراً مربعاً معدودة من أخصب البقاع وأكثرها حاصلات ، وفيها معامل السكر ومعاصر الزيت ، وأهلها ٢٠٠ ألف نسمة منهم

عرب ومنهم من القوم الذين يقال لهم سواحلية ومن الواحاديمو أى أهل الجزيرة الأصليين ، ومن البانيان أى الهنود الشماليين . وكانت زنجبار - مع جزائر بمبا ، وما فيه ، ولامو ، والسواحل الشرقية المقابلة لها - مملكة عربية أسسها ملوك عمان سنة ١٨٥٦ منفصلة عن مسقط بل بعد أن كانت مستعمرات لعمان منذ قرون . فوضعت أيديها الدول المستعمرة على هذه الجزر والسواحل ، ومن سنة ١٨٨٥ إلى سنة ١٨٩٣ تم التقسيم على أن يكون لانكلترا سلطنة زنجبار التى هى عبارة عن جزيرة زنزبار ، وبمبا ، وما يقابلها من الساحل من (أوانغا إلى كيسمايو)

وأن يكون لألمانيا جزيرة ما فيه والساحل الذى بين اومبه ورافومه ، وأن يكون لإيطاليا بعض ثغور فى الساحل . واهم هذه النقاط هى جزيرة زنجبار . وفى الجزيرة مدينة باسم زنجبار أيضاً أهلها ٠٠٠ر١٠٠ نسمة وهى مدينة تجارية مهمة تقدر حركة صادرها ووارداتها بنحو ٦٠ مليون فرنك ، وقد كان سلاطين عمان أسسوا فيها عمراناً وأنشأوا مدنية وشادوا مدارس . وقرأت بعض أسفار عربية مطبوعة بالمطبعة السلطانية فى زنجبار

وخاتمة سلاطين زنجبار اسماً وفعلا كان السيد برغش بن سعيد بن سلطان ، تولى الأمر فى ٧ اكتوبر سنة ١٨٧٠ بعد وفاة أخيه ماجد ، وبقى فى الملك إلى أن توفى فى ٧ مارس سنة ١٨٨٨ . وكان برغش قد نازع أخاه ماجد الملك وأخذ الانكليز إلى بمبای حيث أقام سنتين ، ثم تصالح مع أخيه وعاد إلى زنجبار . ولما مات ماجد خلفه على كرسى الإمارة على شرط الاعتراف بحقوق بريطانيا العظمى أى مآربها الاستعمارية . وفى ٥ يونيو ، حزيران ، ١٨٧٥ أجبرته انكلترا على إمضاء معاهدة إلغاء الرقيق فى بلاده ، فأمضاها ، ثم دعاه الانكليز إلى زيارة انكلترا فزارها وزار فرانسا والبرتغال . وفى سنة ١٨٨٥ ألفت ألمانيا دلوها فى الدلاء وارادت تأسيس مستعمرات لها ، فوجهت نظرها على تلك السواحل التى كانت تخص السلطان برغش ابن سعيد ، ووضعت يدها على جانب عظيم منها ، واستبقى برغش لنفسه السلطنة الاسمية

وقبل وفاته بقليل : اختلف مع البرتغال على الحدود بين أراضيه ومستعمرتهم الموزامبيق ، واستمر الخلاف إلى ما بعد وفاته ، حتى جرى التحديد بين الألمان من جهة والبرتغال من جهة أخرى . وفى آخر حياته ذهب إلى وطنه الأصلى عمان لتبديل الهواء ثم عاد إلى زنزبار ومات وخلفه أخوه خليفة

وكان برغش متوقد الذهن عالى الهمة صعب المقادة أبىّ النفس ، وكان من أشد الناس عداوة للأوربيين الذين كانت لا تخفى عليه مقاصدهم . وكان واسع العلم بأطوارهم وأحوالهم . ومن بعده لم يبق للعرب من سلطنة فى تلك الجزائر الخصيبة والسواحل الطويلة العريضة إلا الاسم ، لأن الأوروبيين ـ لا سيما الانجليز ـ التزموا هدم أركان القوة العربية فى تلك الديار حتى لا يبقى لهم معارض ولا منازع فى استعمارها ، وكما أنهم أوهنوا الأصل الذى هو عمان فقد أسقطوا الفرع الذى هو زنجبار ، لأن كل دولة عربية عزيزة على جانب الأقيانوس الهندى هى قذى فى أعينهم ، وخطر على الهند فى نظرهم . ويجدون أنهم لا يقدرون أن يعلوا فى تلك الديار إلا بسقوط العرب على حد قول القائل :

وكم قائل ما لى رأيتك راجلا فقلت له من أجل أنك فارس

انتهى ما أردنا ذكره مما كتبه الامير الأكتب شكيب أرسلان

قلت : فليتأمل القارىء الحر فى هذه الصحف التاريخية البيضاء التى نمق سطورها أئمة تيهرت بالمغرب وأئمة عمان بالمشرق . وهى كما ترى عظيمة القدر جليلة الخطر ، حافلة بجلائل الاعمال ومفاخر الاجيـــال ، وهى جزء طبيعى من التاريخ الإسلامى المجيد . انظر كيف يمر عليها مر الكرام جمع غير قليل من المؤرخين قديماً وحديثاً ، فى الوقت الذى نراهم لايغادرون صغيرة ولا كبيرة من الدول إلا سجلوا أعمالها وخلدوا فيما كتبوه ذكرها . وقد يكون البعض منها مما لا يقام له وزن كالدويلات التى لم تعش أكثر من ربع قرن ولم يدخل تحت حكمها إلا آلاف قليلة من بنى البشر . فما بالهم يذكرونها فى مطولاتهم ومختصراتهم ، ويهجرون ذكر دول قامت على دعائم العدل وقواعد الشرع ، وخدمت الدين والانسانية والمدنية خدمات تعنو لها جباه المنصفين

إجلالا وتقديراً كدولتى بنى رستم ونفوسة بالمغرب ودولتى عمان وزنجبار بالمشرق . وقد رفعت من شأن الإسلام وأعلت مناره وأيدت تعاليمه بما قصر عنه كثير غيرها من الدول الإسلامية . وعمرت قروناً وقروناً ، وحضع لسلطانها ملايين وملايين من النفوس ، وهى إذ ذاك فى مجد شامخ وعز باذخ لا يدانيها فيه عشرات من تلك الدويلات مضموم بعضها إلى بعض . فيا سبحان الله ، أنقول إنهم يجهلون تاريخها ونرضى لهم بالجهل وكفى ؟ أم نقول إن هذه الدول لكونها تنسب إلى الاباضية فلا يجمل بهم ذكرها ولا يحسن أن تحشر فى زمرة الدول التى دونوا أعمالها ؟ أفيصح ويجوز أن يكون عذرهم هو هذا ؟ اللهم انه لعذر أقبح من ذنب ما ارتكبوه . ألا فليعمل العقلاء وليجد النبهاء فى إزالة هذه السخافات من بين المسلمين ، وليبادل بعضهم بعضاً دراسة تاريخ أمم الاسلام وفرقه بلا تحيز ولا تمييز . وليعلموا أن الخلاف الواقع بين الاباضية والمذاهب الأربعة هو أبسط جداً مما يتصورون

ولكى تقف ـ أيها القارىء ـ على أهم نقط الخلاف فيقوى يقينك ويستنير فكرك ويسود نفسك الاطمئنان نورد لك شيئاً من المسائل المختلف فيها ، وبالله التوفيق ، ومنه نستمد العون

أهم المسائل الخلافية
بين الاباضية والمذاهب الأربعة

١) الصفات الالهية . يقول أصحاب المذاهب الأربعة إن صفات الله غيره وهى قديمة بقدمه تعالى ، والاباضية يقولون هى عين ذاته لا حاجة إلى شيء زائد عنها نفيا لتعدد القدماء

٢) الرؤية . ينفى الإباضية رؤية الله تعالى دنيا وأخرى لأنها تستلزم ما لا يليق بذاته من التحيز وغيره ، والأشعرية (المذاهب الأربعة) يثبتونها له فى الآخرة بلا كيف ولا انحصار فى جهة

٣) القرآن . الاباضية يقولون إن القرآن مخلوق حادث ﴿ ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث ﴾ والأشعرية يقولون إنه قديم . وأدلة الطرفين فى هذه المسائل مبسوطة فى المطولات

٤) مسائل الخلود فى جهنم . الاباضية يقولون داخل النار من عصاة الموحدين مخلد فيها لا يخرج منها أبدا فهو فى الخلود مثل داخل الجنة ، إلا أن الموحد أخف عذابا من غيره . أما الاشعرية فلا يقولون بخلود الموحد العاصى فى النار فان دخلها عذب على قدر ذنبه ثم يخرج منها الى الجنة

٥) مسألة الايمان . الاباضية يقولون الايمان قول وتصديق وعمل . والاشعرية يقولون هو قول وتصديق ، وقيل هو التصديق والقول معبر عنه فقط

٦) ولاية الأشخاص وبراءة الأشخاص . يقول الاباضية بوجوبهما (كولاية الجملة وبراءة الجملة) وصورة الولاية : أن يتولى المكلفون من تثبت ولايته وهو الطائع الموفى بما أمره الله فيحبونه لذلك ويستغفرون له ويساعدونه فى شئونه الدنيوية من بيع وشراء وسائر المعاملات ، وأما البراءة فصورتها : أن يتبرأوا من العاصى ويقطعون معاملته ويهجرونه بحيث يصير كأنه بمعزل عن العالم إلى أن يتوب إلى الله ، فاذا تاب وأقلع عن معصيته أعيدت اليه هذه الحقوق وعومل بما يعامل به سائر إخوانه

وهو كما ترى حكم من أفعل الاحكام فى زجر الناس عن الخروج عن طاعة الله وأنظمة هذه الحياة ، وباعث قوى للنفس على السير فى المنهج القويم دينا ودنيا ، فهو ـ لكونه دينيا ـ يغنى عن أشد العقوبات المدنية التى سنتها القوانين الوضعية . وقد شهد لتأثيره الحسن فى إصلاح الهيئة الاجتماعية حال النفوسيين قديما وما كانوا عليه من العز الشامخ والثراء الواسع ، كما هو شأن العمانيين حال مجدهم حينما كان العمل به جاريا . وحال الميزابيين اليوم بالجزائر وما هم عليه من انتظام الأحوال واتساع الثروة والتمسك بالدين أصدق شاهد على ذلك . فانهم ما زالوا فى تطبيق أحكام الولاية والبراءة على ما هو عليه سلفهم الصالح . والمذاهب الأربعة لا يقولون بولاية الأشخاص وبراءة الاشخاص ، ويكتفون بولاية الجملة وبراءة الجملة الخاص حكمها بمن لم يتدين بدين الاسلام ولا ينسحب على عصاة الموحدين عندهم

٧) مسألة الشفاعة . يقول الاشعرية ان الشفاعة تنال أصحاب الكبائر من الامة المحمدية . وأما الاباضية فعندهم لا ينالها إلا من مات منهم على الوفاء والتوبة النصوح ، ولكل أدلته كما فى سائر المسائل

٨) يطلق الاباضية على الموحد العاصى كلمة كافر ويعنون بها كافر النعمة ويجرون عليه أحكام الموحدين ، ولهم فى ذلك مسوغات شرعية ولغوية ليس هذا محل ذكرها . فالكفر عندهم كفر نعمة ونفاق وهو هذا ، وكفر شرك وجحود وهو الذى يخرج الانسان من الملة الاسلامية . والأشاعرة يكتفون بتسميته عاصيا وفاسقا ، ويمنعون إطلاق الكفر عليه ولو كان مقيدا بما قيده الاباضيون ، ويؤولون ما جاء مشعرا بذلك . وكلا المذهبين على اتفاق فى إجراء أحكام الموحدين عليه . فالخلاف بينهما يقرب أن يكون لفظيا لا روح له من جهة المعنى كما ترى

٩) الميزان والصراط يوم القيامة . يقول الاشعريون إنهما حسيان ، فأعمال الانسان توزن يوم القيامة بميزان ذى كفتين إظهارا للحق وتبكيتا للمقصر . والصراط جسر ممتد على متن جهنم ، تمر من فوقه الخلائق كل بحسب عمله ، فمن مسرع ومن مبطئ ، ومن متردّ فى الجحيم . وأما الاباضية فيقول جمهورهم إن الميزان ليس بحسى والله غنى عن الافتقار اليه . وانما هو تمييز معنوى للأعمال ﴿ والوزن يومئذ

الحق ﴾ كيف والأعمال ليست بأمور محسوسة حتى توزن بميزان من نوعها والصراط أيضا ليس بحسى وانما هو دين الله الحق وطريقه القويم فمن اتبعه فاز ونجا ، ومن حاد عنه خسر وهوى . ومن الاباضية من يجيز ان يكون الميزان والصراط حسيين على على نحو ما قالت الاشعرية

١٠) من المسائل الخلافية التى ليست من اصول الدين ولكن لها تأثير ذو بال فى تغيير مجرى الحياة العامة فى الاسلام وهى مسألة الصحابة : فالاباضية المتقدمون يرضون عنهم الا من احدث ما يخالف ظاهر الدين واصر على ذلك ولم يتب . اما اذا تاب كعائشة ام المؤمنين فى توبتها من موافقة طلحة والزبير عند خروجهما عن الامام على ابن ابى طالب فى وقعة الجمل فانهم يرضون عنها وعن كل تائب من عمله الخاطىء . والمتأخرون منهم يرون التوقف وعدم الخوض اولى . والاشعرية يعذرون الصحابة جميعا ويرضون عنهم جميعا . كذا قيل والذى اراه انهم كذلك الا فى قسم من الصحابة المخالفين للامام على بن ابى طالب فانهم يرضون عن معاوية ولا ينتقدون أتباعه مع انهم اشد الناس عداوة للامام الشرعى ابن ابى طالب ، فقد سن معاوية شتم الامام على المنابر واستمر العمل بهذه السنة السيئة فى بنى امية الى ايام الخليفة عمر بن عبد العزيز فانه رحمه الله قطعها وابدلها بآية قرآنية وهى قوله تعالى ﴿ ان الله يأمر بالعدل والاحسان وايتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون ﴾ ولنعم ما فعل هذا الامام العادل النادر المثال فى ملوك المسلمين وائمتهم . ولكنا نراهم يسخطون ولا يرضون عن اهل النهروان والنخيلة وينسبونهم الى الخطأ والزلل مع ان اكثرهم او قادتهم على الأقل من اصحاب رسول الله وخيارهم ومن اعلمهم بالحلال والحرام واشدهم تمسكا بدين الله . وقد روى التاريخ ، ان الامام عليا ندم على قتالهم يوم « النهروان » ندما شديدا وسمعه جم غفير يردد تأبينهم بقوله والله لأنتم اسود النهار رهبان الليل ولانتم اصحاب الدار يوم الدار واصحاب الجمل يوم الجمل واصحاب صفين يوم صفين واصحاب القرآن اذا تلى القرآن الخ .. انى اجهل تماما السبب الحامل للاشعرية فى هذا التفريق بين الصحابة والخوض فى شأن بعضهم دون بعض خلافا لقاعدة مذهبهم

١١) من المسائل الفرعيـــة المختلف فيها ولكنها ذات خطر فى مجرى الحيـاة الاسلامية العامة مسألة الامامة العظمى [١] ، فالاباضية يرون وجوب نصب الامام كالاشعرية إلا أنهم لا يحصرونها فى عنصر خاص ، بل شرطهم الاساسى هو الكفاءة الشرعية فى الشخص المختار لهـا ، وتجب طاعته ما دام على الحق والعدل شعاره ، فان جار فى الحكم وخالف الحق ولم يتب جاز بل وجب الخروج عنه . والاشعرية يقول جمهورهم لا يجوز الخروج عن الامام الجائر ، ويقولون عن الخلافة يجب أن تكون فى قريش ومن تبوأها من غيرهم فانما هو غاصب لحقهم

١٢) مسألة الوقف - يقول الأشعرية كلهـم أو جمهورهم إن الوقف بقسميه من

---

(١) الامامة العظمى واجبة متى توفرت شروطها . وهى أن يكون أهل الحق نصف عدوهم المتخوف منه أو أكثر ، ولهم ما يكفيهم من علم ومال وسلاح وكراع . وإذا عقدت الامامة لمن هو لها أهل لم يجز له تركها . وشرطه أن يكون ذكرا بالغا عاقلا عالما بالاصول والفروع متمكنا من إقامة الحجج وإزالة الشبه ذا رأى وخبرة فى الحروب شجاعا ولو كان لا يباشرها بنفسه لا يلين ولا يفشل من أهوالها ولا يهاب إقامة الحدود وضرب الرقاب فى سبيل الله ونصرة الحق . وإذا توفرت هذه الشروط فى القرشى فهو أولى وإلا فغيره ممن رضيه أهل الحل والعقد من المسلمين . ولا يفهم من هـــذه الشروط أن نصب الامام غير واجب إذا فقد شرط منها ، لا بل يتعين عليهم نصبه ولو كان دون هـذه المنزلة . اذ العبرة بالشروط الأساسية التى لا يشاد صرح الامامة بدونها . ا هـ ما قاله الامام القطب الشيخ محمد ابن يوسف اطفيش ببعض تصرف . ومما قاله فى هذا الصدد : وعندنا أن الإمامة من الأصول لما صح عن عمر وغيره من الأمر بقتل من تعين نصبه إماما فأبى من قبولها . إلا أنها ليست مما يقدح تخلفه فى صفة الله . فمعنى كونها من الاصول أنه لا يجوز الخلاف فيها . إلى أن قال : وقالت الاشعرية إنها من الفروع المتعلقة بأفعال المكلفين . ونصب الامام عندهم واجب سمعا ، وكذا عندنا إلا أن العقـــل يناسبه إذ لا تقام الحـدود إلا بها . وقالت الصفرية والازارقة والنجدية : لا يجب نصب الامام أصلا . وبعضهم قال يجب عند الأمن لا عند الفتنة . وذكر أقوال غيرهم وأطنب رحمه الله . ا هـ من شرحه للعقيدة

الدين ويجب العمل به مطلقا (١) . والاباضية يحرمون وقف الذرية المسمى اليوم بالوقف الاهلى ولا سيما المتعلق بحرمان الإناث من إرثهن الشرعى ، وإباضية الشرق لهم فى ذلك تفصيل ، والجميع لايرون بأسا فى الوقف الخيرى المراد به وجه الله خالصا كالمساجد والمدارس والمستشفيات وغيرها ، وللواقف ثواب عمله

وما عدا ما تقدم فالخلاف فيه سواء فى العبادات والمعاملات شأنه شأن الخلافات الواقعة بين المذاهب الاربعة فما تجده سائغا عند الاباضية والمالكية قد تجده ممنوعا عند الحنفية والشافعية مثلا والعكس ، وهكذا فى أغلب المسائل . كالخلاف فى المنخنقة والموقوذة والمتردية فان ذكاتهن عند الاباضية جائزة ، وعند المالكية ممنوعة ، ولكل دليله ، وفى المذاهب الأربعة من يوافق الاباضية فى ذلك ويخالف المالكية والعكس وكجواز الطلاق بالاعسار والغيبة عند المالكية والاباضية وعدم جوازه بهما عند الحنفية . واستمرار حق الحضانة لأم المحضون ومن يليها إلى بلوغ الذكر وتزوج الانثى عند المالكية ، والتفصيل والتخيير للمميزين عندنا ، وإلى سبع سنوات للذكور وتسع للاناث عند الحنفيه . وكمنع التقصير فى الصلاة للمسافر بنية الاقامة أربعة أيام عندهم واستمراره ما انتفت النية فى الاقامة واتخاذ الوطن عندنا لحديث « صلاة المسافر ركعتان حتى يؤوب إلى أهله أو يموت » ، وعلى هذا الرأى كان الحسن البصرى التابعى المشهور فقد روى عنه أنه قال : مضت السنة أن يقصر المسافرون ولو أقاموا عشر سنين ما لم يتخذوها وطنا . وهكذا الشفعة للغائب : فانه باق على حقه فيها عندهم ، ولا شفعة له عندنا لما فى ذلك من تعطيل الحقوق . ومثله اليتيم أيضا للعلة نفسها . وكذلك الجنابة فانها لا تبطل صوم الصائم عندهم وعندنا تبطله ، ويجب على المجنب أن يغتسل

---

(١) وقفت على محاضرتين رد فيهما كل من العلامة الشيخ محمد بخيت والعلامة محمد على علوبه باشا على صاحبه وكلاهما من عظماء مصر ومشاهيرها . الاول يرى أن الوقف بقسميه (الاهلى والخيرى) من الدين . والثانى يرى لزوم إلغاء الوقف الاهلى لكونه ليس من الدين مع قلة الانتفاع به حينما يكثر المستحقون بالتناسل فيصبح مهملا خرابا لا عناية لأحد به . وأطال كل منهما فى البحث والرد ، ولكل أدلة وانصار . فأنت ترى أن الباشا المذكور قد وافق ما عليه الاباضية من حيث لا يدرى ، فضلا عمن ذكرهم فى محاضرته ، فتأمل جهل بعض المسلمين ببعضهم

قبل طلوع الفجر فان أصبح مجنبا فقد أصبح مفطرا إلا إن بادر إلى الاغتسال . وعندنا يحرم نكاح الزانية على الزانى بها ولا تحرم عليه بذلك عندهم ، ولكل من الفريقين أدلة طويلة ومستندات يطول شرحها ، فلا يناسب فى هذا المختصر سوقها ، ومثل ذلك الدخان فانه حرام عندنا ومباح أو مكروه عندهم ، وقيل حرام عند بعضهم . ومنها أن أصحابنا جعلوا النظر فى إقامة كافل اليتيم للعشيرة وعلى القاضى التنفيذ ، وعندهم ان ذلك من اختصاص القاضى لا غير . ومنها جواز الحكم فى الاموال بالشاهد واليمين عند المالكية ، ولا يكون إلا بالشاهدين عندنا وعند الحنفية كسائر الحقوق والحدود إلا فى الزنا فان الجميع اتفقوا على اربعة شهداء وإلا اقيم عليهم حد القذف . وكذا الاعذار فانه لازم فى الحكم عند المالكية وغير لازم عند الاباضية والحنفية . ومنها ان البسملة آية من كل سورة عند الاباضية والشافعيه وعند الحنفية ايضا فيما اظن وليست كذلك عند المالكية ولذا كرهوها فى الصلاة المفروضة . ومنها ان المراة عندنا سواء كانت بكرا ام ثيبا لا اجبار عليها من الولى ولو كان ابا ، بل لا بد من مشورتها ومنحها الحق فى اختيار من تريد ان يكون شريكا لها فى الحياة الزوجية وانما للاب ان يزوج بنته استبدادا فى صورة واحدة فقط وهى ان تكون بكرا دون البلوغ لا غير . ومع ذلك فلها حق فى رد ما فعله الأب وغيره حين بلوغها على الفور وما عدا هذه الصورة فالشرط الاساسى فى صحة العقد هو رضاها وموافقتها . والحنفية فى هذا الباب موافقون للاباضية . واما المالكية فنى الثيب كذلك . واما البكر فللاب ان يجبرها على التزوج بمن شاء ولو تجاوزت حد البلوغ ويسمونه لولى المجبر . ومن ابسط المسائل الخلافية جواز رفع اليدين وتحريك السبابة والقنوت فى الصلاة عندهم . ومنع هذه الافعال عند الإباضية لمخالفتها مقتضيات الخشوع . والرفسع المذكور مع كونه معتبرا عند المذاهب الاربعة من المندوب اليه ندبا غير اكيد فان العامة منا ومنهم يعتبرونه الفارق الوحيد بين الفريقين . والسر فى ذلك معلوم وهو ان الصلاة أكثر الفرائض تكرارا وظهورا وشيوعا

واما الطرق الصوفية الكثيرة الشيوع فى المذاهب الأربعة كالقادرية والعروسية والرفاعية والعيساوية والساعدية والتيجانية والسنوسية والبكطاشية وغيرها كثير

فليس لها وجود فى المذهب الاباضى ، وهى فى نظره من البدع المحرمة شرعا ، ولا يتوقف الوعظ والارشاد وتهذيب النفوس على احداث مثل هذه الطرق والانتساب الى رجالها على النمط المعهود عندهم . ومع هذا فلا ينكر الاباضيون كرامة الاولياء ووجود الصالحين من عباد الله المخلصين ولزوم احترامهم لكن لا على هذا الوجه ﴿ واتقوا يوما لاتجزى نفس عن نفس شيئا ﴾

هذا ولا أعلم بين الفريقين خلافا فى الصلاة ووجوبها وأدائها فى الأوقات الخمسة وعدد الركعات ، ولا فى الحج وأركانه ومناسكه ، ولا فى الزكاة ونصابها ومواضع صرفها ، ولا فى الصوم ووجوبه وأغلب مصححاته ومفسداته . وقد علمت مافى الركن الاعظم (التوحيد) من الاتفاق على تنزيه البارى عن كل نقص وإن اختلفت وجهات النظر ﴿ ولكل وجهة هو موليها فاستبقوا الخيرات أينما تكونوا يأت بكم الله جميعا إن الله على كل شىء قدير ﴾ . وفى هذا القدر كفاية لمن يريد الاطلاع الاجمالى وبالله التوفيق .

خاتمة

فيما يفعله الاباضية مع من تحت حكمهم من مخالفيهم

إن الواقف على مجمل تاريخ هذه الفرقة الاسلامية وعلى ما بينها وبين الأشعرية من الخلاف المبين أهمه هنا ، قد يدفعه حب الاطلاع فيشتاق إلى معرفة ما هى معاملة الدولة الاباضية لرعاياها الاسلاميين المخالفين لها فى المعتقد . وللقيام بهذا نورد له ما يأتى ليكون على بينة مما عليه الاباضيون فى حكم الشعوب وسياسة الأمم التى تحت لوائهم . وذلك نقلا عن أحد ائمتهم الفحول العلامة أبى يعقوب يوسف بن ابراهيم الورجلانى صاحب التصانيف المعتبرة فى المعقول والمنقول المتوفى سنة ٥٧٠ هـ (سنة ١١٧٤ م) ، ومن أعظم مؤلفاته قدرا وجلالة « الدليل والبرهان » الذى ننقل منه ما نصه :

باب ما ينبغى لامير المؤمنين ان يفعله مع مخالفى الاباضية من المسلمين

والذى ينبغى له أن يدعوهم إلى ترك ما به ضلوا ، فان أجابوا اهتدوا وصاروا إخواننا لهم ما لنا وعليهم ماعلينا . كما قال أبو حمزة المختار بن عوف[1] وقد خطب أهل المدينة فقال : أيها الناس ، نحن من الناس والناس منا ، إلا عابد وثن ، وملكا جبارا ، وصاحب بدعة يدعو الناس اليها . وان امتنعوا من ذلك دعوناهم إلى أن نجرى عليهم

---

(١) هو أحد أئمة الاباضية الكبار . استنجد به أهل اليمن بواسطة قاضى حضرموت عبد الله بن يحيى طالب الحق لازالة ظلم القويسم عامل مروان بن محمد فأنجدهم بجيش عدده ١٦٠٠ فتلقاه العامل فى ثلاثين ألفا ولكن أبا حمزة هزم هذا الجيش العرمرم ولم يقتل جريحا ولم يتبع مدبرا ، فاحتل اليمن وسار نحو مكة فاحتلها بدون قتال ، ثم سار إلى المدينة فاحتلها أيضا وخطب فى الناس داعيا إلى كتاب الله وسنة رسول الله ، ثم سار إلى الشام فالتقى بجيش مروانى كثيف بوادى القرى فاقتتلوا قتالا شديداً خانه الحظ فيه فمات رحمه الله وانهزم جيشه وانحل أمره وعاد الظلم إلى ما كان عليه .

حكم الله تعالى من دفع الحقوق والخضوع لواجب الاحكام ، فان أذعنوا لذلك تركناهم على ما هم عليه ووجب لهم من الحقوق والاحكام ما يجب لنا وعلينا ، إلا ما كان من الاستغفار فلا حق لهم فيه ما داموا متمادين على ما هم عليه ووسعنا واياهم العدل . ولهم حقوقهم من الفيء والغنائم والصدقات على وجوهها ، ولهم علينا دفع الظلم عنهم كما يجب لسائر المسلمين ، والعدل فى الاحكام والدفاع عنهم . وان غزوا معنا فلهم سهامهم كما لنا ، ومن امتنع منهم مما وجب عليه من الحقوق أدبناه بما يقمعه ونرده إلى سواء السبيل ، وان جاوزوا ذلك سفكنا دماءهم واستحللنا قتالهم . وان اعترفوا بطاعتنا وانفردوا ببلادهم وأجروا فيها أحكامهم تركناهم . وذلك ما لم يكن رد على آية محكمة أو سنة قائمة ، ونستقضى عليهم منهم من يقوم بواجب الحقوق عليهم ولهم ، ونقبل قوله فى ذلك على أسلوب القضاة كلهم . ولا يمنعنا من ولاياتهم إلا ماهم عليه . ونأخذ منهم كل ما يجب من الحقوق ونردها فى فقرائهم وذوى الحاجة منهم . وان انهمناهم فى شيء أعذرنا اليهم ولا نتركهم يظهرون منكرا بين أيدينا إذا كان عندهم منكرا ديانة . ونمنعهم أن يحدثوا فى أيامنا ما لم يكن إلا أن يكون أمرا لا مكروه تحته . وإن خرجوا علينا وهزمناهم فانا لا نتبع مدبرا ولا نجهز على جريح ، وأموالهم مردودة عليهم إلا ما كان عائداً لبيت المال فانا نأخذه ونصرفه فى وجوهه . ولا نستعمل معهم فى ذلك طريقة الزهاد مثل ما فعل أبو منصور سنة ٢٦٧ مع ابن طولون حين هزمه شر هزيمة بعسكر نفوسة فلم يأخذ أبو منصور ورجاله شيئا من تلك الاموال الوافرة زهدا وتورعا وتركوها لأهل مدينة طرابلس فتوزعوها وانتهبوها . وإن قدرنا عليهم قتلنا منهم كل من قتل أحدا منا بعينه قصاصا . ونسرح سبيل الاسارى ولا نتبع المنهزمين ولا نعترض أحدا منهم إلا من طعن فى الدين أو قتل من المسلمين أو دل عليهم فهؤلاء يقتلون إذا قدرنا عليهم إلا من تاب قبل ذلك . ونصلى على قتلاهم وندفنهم ، ونجرى المواريث بيننا وبينهم على وجوهها ، والأموال والحرمات على وجوهها اهـ

فليتدبر المنصف فى هذا الدستور الاسلامى الذى جاء به الكتاب العزيز والسنة النبوية ، والذى مابرح يقوم بتطبيقه أئمة الإباضية وعمالهم فى جميع أدوار تاريخهم

السياسى تطبيقا عمليا . خلافا لما عليه الملوك الظلمة الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إلى الرسول وما جاء به من أمر ونهى ووعد ووعيد وحـــلال وحرام وحدود وأحكام ، ثم لاترى لاتباع أوامر الشرع أى أثر فى أعمالهم وحروبهم ، بل لاترى إلا السلب والنهب وهتك الأعراض والفتك بالأبرياء وغير ذلك من المناكر التى تقشعر من ذكرها الأبدان وتشمئز من بشاعتها وشناعتها أقسى القلوب . ومع هذا فكثير من المؤرخين يذكرون هؤلاء على أنهم من عظماء الاسلام وملوكه الذين تفتخر بهم الاجيال . غافلين أو متغافلين عن التنويه بأهل هذا القسم المهم من التاريخ الاسلامى الذى ليس فى صحائفه إلا ما يبيض وجه الانسانية ، ويرفع من كرامة الشعوب المحمدية ، ويبرهن بأسطع الأدلة وأقواها على أن دين الاسلام هو دين العدل والحرية والمساواة المطلوبة لبنى الانسان ، متى وجد كهؤلاء الأئمة من يحسن تطبيق قواعده وتنفيذ أحكامه . ولا نذهب بالقارىء بعيدا ، فنظرة فى عمل أبى منصور فى حربه مع ابن طولون وهو عامل من عمالهم تكفيه حجة على ما هم عليه من التحرى لدين الله . ولقد أنقذ هذا البطل حكومة الاغالبة يومئذ من خطر محقق الوقوع . اذ معنوية جيشهم قضى عليها ابن طولون قضاء مبرما . فلولا أبى منصور لتم له القضاء على دولتهم نهائيا بدون شك . لكن لؤم الاغالبة أبى عليهم إلا أن يقابلوا هذا الجميل باقبح ماتراه العيون وتسمعه الآذان قبل أن تمضى سبع عشرة سنة من تاريخه وذلك فى وقعة مانو المشهورة سنة ٢٨٤ التى حاربوا فيها النفوسيين وهزموهم هزيمة مؤلمة ، فقد أفحش بنو الأغلب فيهم قتلا ونهبا وسبيا وتمثيلا ، وأسرفوا أيما إسراف ، وأتوا بكل أنواع الفظائع التى تأباها الانسانية ويحرمها النظام الدولى والشرع المحمدى أشد تحريم . فكأنما الوازع الدينى لم يخلق فى نفوسهم ولا سكن حتى بجوارها . ولعمرى إن البيتين المشهورين :

ملكنا فكان العدل منا سجية ... فلما ملكتم سال بالدم أبطح

فحسبكم هذا التفاوت بيننا ... وكل إناء بالذى فيه ينضح

طما أحسن ما يتمثل به أبو منصور ونفوسة عند الفخر والمقابلة بين عملهم وعمل بني الأغلب . فسبحان من لا إله غيره ولا خالق سواه ، يخلق من يشاء كيف يشاء وهو الحكيم العليم ، لا يسأل عما يفعل وهم يسألون

تنهى ما أردنا جمعه والحمد لله ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم

وكان الفراغ من جمعه فى شهر الله المبارك رمضان سنة ١٣٥٥ هـ (سنة ١٩٣٦م)

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم

مراجع التأليف

كتاب السير للشيخ أحمد الشماخى
تاريخ الأزهار الرياضية للشيخ سليمان باشا البارونى
المنهل العذب لأحمد بك النائب الطرابلسى
الشرح الكبير على العقيده للامام الأكبر محمد اطفيش
تاريخ الجزائر للاستاذ توفيق المدنى
تاريخ الجزائر للاستاذ الكعاك
تاريخ طرابلس للشيخ ابن غلبون المصراتى
تعاليق الأمير شكيب أرسلان على حاضر العالم الاسلامى
مجلة المنهاج للشيخ إبراهيم اطفيش الميزابى
سير نفوسة للشيخ أحمد الشماخى

فهرس الكتاب

	صحيفة
الخطبة	٣
المقدمة	٤
مقدمة الطبعة الثانية	٩
محمد صلى الله عليه وسلم	١٣
خلافة أبي بكر الصديق	١١
خلافة عمر الفاروق	١٤
خلافة عثمان بن عفان ، خلافة على بن أبي طالب	١٥
الحسن بن على	١٦
معاوية بن أبي سفيان وملكه	١٨
اليزيد بن معاوية ومعاوية بن اليزيد	١٨
مروان بن الحكم وعبد الله بن الزبير	١٨
عبد الملك بن مروان ومراسلته لامام الاباضية	١٩
المذهب الاباضى وامامة عبد الله بن اباض	١٩
جواب الامام ابن اباض لابن مروان	١٩
الامام جابر بن زيد فقيه البصرة فى عصره	٢٠
الامام أبو عبيدة وجمع من ائمة الاباضية وجملة استطرادية نفيسة	٢٤
اباضية اليوم وأين يوجدون	٢٥
انتشار مذهب الاباضية وظهوره بالمغرب ، وامامة الحارث وعبد الجبار	٢٦
إمامة أبي الخطاب عبد الأعلى اليمنى الاباضى بطرابلس والقيروان	٢٧
	٢٧

صحيفة

امامة أبي حاتم يعقوب بن حبيب	٢٩
حملة العلم والدين إلى المغرب	٣٠
خلافة ابن رستم بتيهرت (عراق المغرب)	٣١
خلافة الامام عبد الرحمن بن رستم	٣٢
خلافة الامام عبد الوهاب بن عبد الرحمن	٣٤
خروج ابن فندين عن الامام ، وتأييد شعيب المصرى له	٣٤
خروج خلف بن السمح بجيز طرابلس (نفوسة)	٣٥
أشهر المثرين فى عهد عبد الوهاب	٣٦
خلافة الامام أفلح بن عبد الوهاب	٣٧
خلاف نفاث بن نصر فى الجبل	٣٧
خلافة الامام أبي بكر بن أفلح	٣٩
خلافة الامام أبي اليقظان بن أفلح	٣٩
حرب نفوسة وأبي منصور لابن طولون	٤٠
خلافة أبي حاتم يوسف بن أبي اليقظان	٤٢
أهم ما حدث فى زمنه ، بيعة عمه يعقوب	٤٢
خروج الطيب بن خلف	٤٢
واقعة مانو بجيز طرابلس	٤٣
إمارة اليقظان بن أبي اليقظان ، وانقراض ملك بنى رستم	٤٣
حال الاباضية بعد انقراض الخلافة الرستمية	٤٤
بعض مشاهير أمراء نفوسة	٤٦
بعض أمراء الأسرة البارونية	٤٦
إمارة أبي يحي زكرياء بن ابراهيم البارونى	٤٨
أصل العائلة البارونية واستمرار نفعها	٥٠

صحفة

انتشار المذهب الاباضى بالاقطار الشرقية	٥١
خلاصة تاريخ عمان منذ البعثة النبوية	٥٢
الفات نظر واعتذار	٥٣
تنازع الامامة الشرعية والملكية المطلقة	٥٤
دولة آل يعرب وأئمتها وفتوحاتهم العظيمة	٥٥
غارة العجم وسقوط آل يعرب	٥٦
دولة آل سعيد ومآلها	٥٧
تعليق الشيخ أبى اسحاق ابراهيم اطفيش	٥٩
تعليق الأمير شكيب أرسلان	٦١
كلمة المؤلف تحت قوله « قلت »	٦٣
أهم ما بين الاباضية والمذاهب الأربعة من المسائل الخلافية	٦٥
خاتمة فيما يفعله إمام الإباضية مع من تحته من المخالفين	٧٢

طبع بالمطابع العالمية . ص.ب ٣٩٥٩ رمزيه . سلطنة عمان